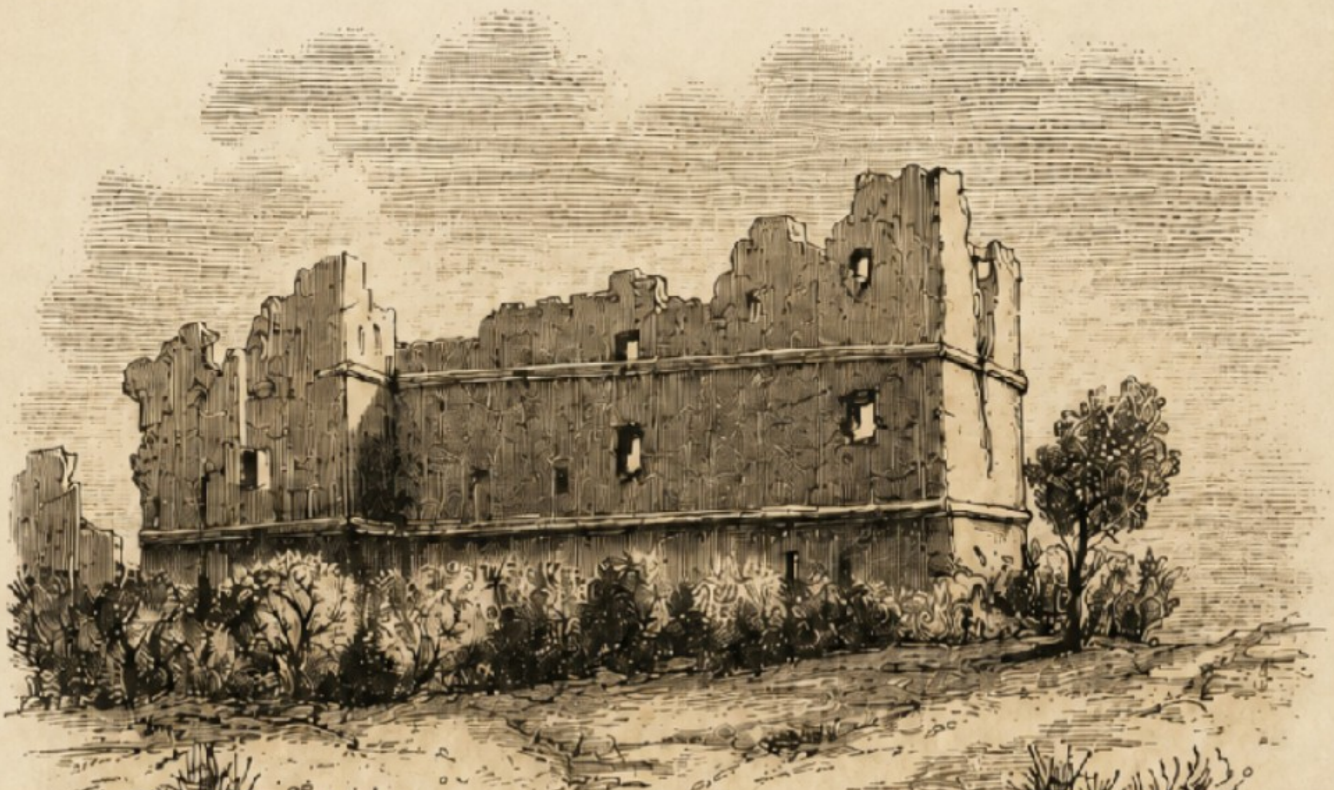
رحلة جوزيبي هايمان الى برقــة

سنة 1886م

رسوم مأخوذة من رسومات المؤلف مع
خريطة جغرافية ومخططات لموانئ
بنغازي ودرنة



ترجمة وتحقيق

اسامة بوالفازعة المنصوري

رحلة جوزيـبي هايمان
الى برقــة

سنة 1886م

رسوم مأخوذة من رسومات المؤلف مع
خريطة جغرافية ومخططات لموانئ
بنغازي ودرنة

تأليف
جوزيي هايمان

ترجمة وتحقيق
اسامة بوالفازعة المنصوري

مقدمة المترجم

يضع القارئ بين يديه ترجمة عربية لكتاب "Cirenaica (Tripolitania)" الذي وضعه الرحّالة والفنان الإيطالي جوزيبي هايمان، وصدر عن دار النشر أولريكو هويبلي بميلانو سنة 1886، في طبعته الثانية المزوّدة بالحواشي وخريطة جغرافية ومخططين لمينائي بنغازي ودرنة.

يُعدّ هذا الكتاب من أهم الشهادات الأوروبية عن إقليم برقة (قورينائية) في القرن التاسع عشر، إذ يسجّل فيه المؤلف رحلته التي قام بها رفقة زوجته سنة 1881، ضمن بعثة أوفدتها "جمعية الاستكشاف التجاري في أفريقيا" التي كان مقرها ميلانو، بهدف دراسة أحوال البلاد الطبيعية والبشرية والأثرية، تمهيدًا لإقامة علاقات تجارية بين إيطاليا وسواحل برقة.

وما يميز هذا العمل عن كثير من كتابات الرحالة الأوروبيين في تلك الحقبة، أن مؤلفه لم يكن رحالة عابرًا فحسب، بل كان رساماً موهوباً درس الفن في أكاديمية بريرا بميلانو، فجاءت رسومه التي أنجزها من الطبيعة مرافقة لنصه توثيقاً بصرياً نادراً لمعالم المدن والقرى والآثار والحياة اليومية لسكان برقة آنذاك، من بنغازي إلى قورينا ودرنة وما بينهما.

وقد حرصنا في هذه الترجمة على نقل النص الإيطالي الأصلي بأمانة، مع تبسيط الصياغة حيثما اقتضى السياق العربي ذلك، والإبقاء على أسماء الأماكن والقبائل والأشخاص كما وردت عند المؤلف قدر الإمكان، معرّبة بما يقارب نطقها الأصلي، نظراً لما قد يكون طرأ على بعضها من تحوّل في النطق أو الرسم عبر أكثر من قرن ونصف من الزمن.

ولأن الكتاب يقع في نحو مئتين وخمسين صفحة، فقد ارتأينا إصداره في أجزاء متتالية، يشتمل هذا الجزء الأول منها على مقدّمة عن حياة المؤلف، ولمحة تاريخية موجزة عن برقة كتبها المؤلف نفسه ثم فصلي الرحيل من إيطاليا والوصول إلى بنغازي، على أن تلحقها بقية الفصول تباعاً.

ونرجو أن يجد القارئ العربي في هذا العمل، رغم قدمه، مادة تاريخية وجغرافية وإنسانية ثرية عن هذا الجزء العزيز من الوطن العربي، كما رآه عين أوروبية منصفة في تلك الحقبة.

والله ولي التوفيق.

نبذة عن حياة جوزيبي هايمان

دخل هايمان سلك الوظائف العامة معتمداً وحده على ذكائه وحسن خلقه، فتقدّم فيها بجدارة. وأتاحت له معرفته التامة باللغتين الإيطالية والألمانية، إلى جانب دراسته العملية في التوثيق والمحاماة بين عامي 1848 و1851، أن يخوض اختباراً وُفّق فيه، فعُيّن على إثره محرراً للنص الإيطالي من "نشرة القوانين" في فيينا، وكُلّف بترجمة القانون الجنائي ولائحته الإجرائية. وكان بإمكان هذا المنصب في عاصمة الدولة أن يفتح أمام رجل بذكائه ونشاطه آفاقاً أرفع، غير أن حبّه لوطنه دفعه إلى الرغبة في العودة إليه، فتقدّم لامتحان القضاء لدى محكمة استئناف البندقية، وطلب منصب سكرتير معاون في تلك المحكمة فناله. لكنه لم يحتفظ به طويلاً؛ فبعد انتهاء الحرب الإيطالية الفرنسية ضد النمسا في شمال إيطاليا، وخيبة الأمل في استعادة البندقية استقلالها إثر الهدنة، توجّه هايمان إلى ميلانو ليعرض خدماته على الحكومة الإيطالية.

فقُبل عرضه. وكانت خبرته المكتسبة في أروقة القضاء اللومباردي - البندقي، ومعرفته الخاصة بالشؤون القانونية، تؤهله بطبيعة الحال لمنصب في قلب الإدارة، بعد ضمّ لومبارديا إلى بيدمونت. فعُيّن أولاً موظفاً ملحقاً ثم سكرتيراً في وزارة العدل بتورينو، وسرعان ما نال ثقة رؤسائه ومودتهم لجدّية دراسته وحدّة ذكائه وتفانيه الكامل في أداء الواجب في كل ما يقوم به من أعمال، وهي صفات أكسبته احترام وتقدير كل من عرف - خلف تواضع طبعه وبساطة حديثه - رصانة علمه ونبل روحه. وفي سنة 1864 أصبح هايمان رئيس قسم، وبعد تسع سنوات رئيس شعبة (1873).

وفي تلك الأثناء كان هايمان قد اقترن، سنة 1858، بالآنسة أنجيلا بيتّوني، ابنة قاضٍ فاضل هو اليوم أول رئيس لمحكمة استئناف برشيا. وخاض معها رحلات تُعدّ من أعزّ ذكريات حياته، وأفادت كثيراً في تنمية موهبته الفنية؛ إذ كان يسكن في نفس هذا الموظف الرزين الدؤوب روحٌ مفتونة بمشاهد الطبيعة المهيبة، وحسّ ملاحظة وبحث يتجاوز كثيراً دائرة أعماله المعتادة. فقد أحبّ هايمان الرسم بشغف، وتتلمذ في أكاديمية بريرا على يد كبار أساتذة هذا الفن، فدرس الشخوص على يد الشهير هايتز، والمناظر الطبيعية على يد بيزي الذي أولاه عناية خاصة.

وقد زاد هذا التوجه الفني من الفائدة التي جناها، لنفسه وللآخرين، من رحلاته إلى الشرق، ومن المهام التي أُسندت إليه في مصر، ومن تسلّقاته في مناطق مختلفة من جبال الألب والبرانس.

وبفضل ثقافته الأدبية، وما أعدّته له دراساته الملائمة، وكأنه كان يتنبأ بمستقبله، بدأ منذ شبابه بتعلّم عدة لغات شرقية، وبخاصة العربية، فتمكّن من زيارة فلسطين وسوريا وبرقة ومصر بأهداف حقّق نتائجها معبّراً عنها مزدوجاً بالقلم والريشة معاً. ولا غرو أن يكبر إعجاب من يعرف لوحته عن أرز لبنان، حين يقرأ الوصف الحيّ الذي نشره عن رحلته إلى الجبل، حيث لا تزال تُرى بقايا تلك الأشجار الشهيرة المعمّرة. وقلّما يجتمع في شخص واحد موهبة الفنان وموهبة الكاتب معاً.

غير أن مصر وبرقة كانتا، أكثر من الأماكن الشهيرة في فلسطين، البلدين اللذين أتيح له أن يدرسهما دراسة متعمّقة، واستخلص منهما أكبر قدر من أعماله، رساماً وكاتباً على السواء. وكان مقامه خمس سنوات في أرض الفراعنة الكلاسيكية أمراً لا يقل شرفاً له. ففي سنة 1874 عرضت عليه الحكومة الإيطالية، فقَبِل، منصب رئيس شعبة في وزارة العدل المصرية، من أجل الإصلاح القضائي الدولي.

وأتاحت له هذه المهمة أن يوظّف ويوسّع، بملاحظات جديدة، الدراسات المقارنة حول الإدارة والنظام القضائي التي كان قد أنجزها سنة 1867 بتكليف من الوزير بورغاتي، حين زار المعرض العالمي بباريس وجال بالغرض نفسه في بلجيكا والنمسا وبروسيا. كما جعلت هذه المهمة الفنان فيه أكثر اتصالاً

وألفة بجمال تلك الطبيعة الشرقية التي ظلّت تمارس على نفسه سحراً خاصاً. وأصبحت مصر بالنسبة له موضوعاً خاصاً لملاحظات دقيقة، يسّرها إقامته المتواصلة سنوات عدة، وعلاقاته بالسلطات المحلية بحكم منصبه الإداري الرفيع، واتصاله بكبار الرحالة والشخصيات الأجنبية. وكانت ثمرة هذه الدراسات ملاحظات عديدة عن الرجال والمؤسسات والعادات والسكان والأرض، نُظّمت وصيغت في عمل بعنوان "مصر الخديوية"، نُشر على حلقات في مجلة "نووفا أنتولوجيا".

وكان هايمان الأجنبي الوحيد بين رؤساء الشعب في وزارة العدل، فأفاد كثيراً، بلين طبعه وحكمة سلوكه، في تلطيف الاحتكاكات والتوفيق بين متطلبات أعضاء لجنة الإصلاح والمتعاونين معها. وقد كان راضياً عن نتيجة مهمته، ومنسجماً مع ميوله الفنية، وربما كان سيطيل إقامته في القاهرة كغيره من الإيطاليين، لولا أن غلبة نفوذ قوى معينة نقلت منصبه إلى موظف من جنسية أخرى. فغادر مصر في أبريل 1880، حاملاً معه دراسات كثيرة من الطبيعة، وقطعاً أثرية، وانطباعاً عميقاً راسخاً لم يستطع معه أبداً التخلي عن رغبته في العودة إليها.

وعاد إلى إيطاليا، وقد شغل غيره منصبه كرئيس شعبة في وزارة العدل، فعُيّن بعد عشرة أشهر أميناً لمحكمة النقض بباليرمو، وأُلحق فوراً بوزارة الخارجية، حيث انكبّ بشكل رئيسي على أعمال تتعلق بالإصلاح القضائي في مصر.

وفي تلك الأثناء أوفدت "جمعية الاستكشاف التجاري في أفريقيا" المتمركزة بميلانو، سنة 1880، بعض مندوبيها إلى بنغازي، مدينة برقة، لإقامة محطة تجارية فيها، وقررت أيضاً القيام ببعثتين، إحداهما تجارية والأخرى علمية وفنية مكلّفة خصوصاً بجمع مقتنيات حيوانية ونباتية وأثرية. ودُعي هايمان فقَبِل هذه المهمة الثانية، وفي فبراير 1881 غادر رفقة زوجته الوفية إلى برقة، وقاسم معها لمدة شهرين متاعب استكشاف تمكّن بفضل عونها الذكي من إنجازه بنتيجة مثمرة ومشرّفة. وعاد منها بمجموعة من القطع شملت النبات والحيوان والإثنوغرافيا، استفادت منها متاحف روما. ولم ينسَ الفنان فيه ما يمكن أن تقدّمه الريشة عوناً لكلمة الرحّالة المكلّف بنقل المعلومات والانطباعات عن الأماكن التي زارها.

وبعد هذه الرحلة، استأنف هايمان أعماله في وزارة الخارجية، وانكبّ بتكليف خاص من الوزير على جمع المعلومات وترتيب التعليمات اللازمة لإنجاح مهمة لدى الملك يوحنا ملك الحبشة، كان يتمنى تنفيذها مع صديقه المنكوب غوستافو بيانكي، وهي مهمة أُعطي أملاً بها لكنه لم يتمكن من الحصول عليها.

واقتُرحت عليه مهمة أخرى أقل رغبة وأكثر صعوبة، وإن كانت هي أيضاً مشرّفة وموافقة لقلبه المحب للخير: أن يُوفد إلى مصر محامياً مفوضاً من الحكومة للدفاع المجاني عن الفقراء، بينما يتوجه إليها مفوض ملكي لتسوية تعويضات الأضرار الناجمة عن الأحداث المؤسفة التي كانت الإسكندرية مسرحاً لها، فيما يخص الجانب الإيطالي.

وقد أدّى هايمان هذه المهمة بتفانٍ نادر. غير أن صحته، التي كانت قد أضعفتها مرارة خيبة أمل حديثة، تأثرت بذلك ثم انتشرت الكوليرا فأصيبت بها السيدة هايمان، فبذل لها زوجها رعاية دؤوبة، وساهمت هذه الرعاية المحبّة في إنقاذها، لكنه هو نفسه لم يفلت من عواقب مرض عدوى أصابه بعد ذلك بقليل، فقضى عليه سريعاً في سن الخامسة والخمسين، في الخامس عشر من سبتمبر سنة 1883. وبكته الجالية الإيطالية بأسرها، وبخاصة العمال والفقراء الذين رعاهم برعاية أبوية. وقد عبّر العريضة التي قُدّمت لأرملته بعد وفاته عن الامتنان العام لمآثره، وتوافقت مع كلمات كان قد نطق بها هو نفسه في

مناسبة مهمة أخرى من مسيرته: "إن رضائي هو أنني استطعت أن أوفّر على النــاس كثــيراً من الآلام وشيئاً من الظلم".

وكان هذا الشعور بالخير المُنجز جزاءً جديراً بحياة أُنفقت في أداء الواجب وعبادة الفن.

روما، مايو 1885 - لويجي فيرّي

لمحة تاريخية

إن برقة، رغم قربها من أعتاب إيطاليا لا تزال حتى الآن أقل معرفة لدى كثير من مواطنينا من أستراليا ونيوزيلندا. ومع ذلك، كانت هذه المنطقة في العصور القديمة، شأنها شأن سائر سواحل المتوسط، مرتبطة بروما بروابط السيادة والعلاقات التجارية المتكررة. كانت خيولها تجري في الحلبة، وسائقو عرباتها مشهورين ببراعتهم في المدينة الخالدة؛ وكانت عطورها مطلوبة لدى السيدات الرومانيات، وكان نبات "السلفيوم القوريني" يُعتقد أنه دواء ناجع لكل الأدواء. كانت برقة، باختصار، بلداً مزدهراً آهلاً بالسكان، على تواصل دائم بالعالم المتحضر آنذاك. فما الأسباب التي أدّت إلى خرابها وبؤسها حتى نُسيت من قبل الأمم المتحضرة الحديثة، التي تبحث بحمّى في كل مكان عن منفذ لمنتجاتها ولنشاط سكانها المتزايد أبداً؟ لعل لمحة تاريخية موجزة تكفي لتوضيح ذلك.

يروي هيرودوت، في كتاب ملبومين، أنه في زمن قريب من حملات داريوس الأولى، تولّى ثيراس بن أوتيسيوس الوصاية على عرش إسبرطة في طفولة ابني أخيه، ولدي أريستوديموس. فلما بلغا سنّ الرشد وتوليا السلطة، لم يستطع ثيراس أن يرضى بالعودة إلى مرتبة الرعية بعد أن ذاق طعم السيادة. فغادر إسبرطة بثلاث سفن ذات ثلاثين مجذافاً، وتوجه إلى جزيرة كاليستي، التي أخذت من اسمه لاحقاً اسم "ثيرا"، وأسس فيها مستعمرة تألفت جزئياً من اللاقيدمونيين وجزئياً من "المينيين"، أحفاد الأرجونوت، الذين كان الإسبرطيون قد حكموا عليهم بالموت وأنقذتهم حيلة زوجاتهم. وبعد عدة أجيال، توجّه كرينوس، أحد أحفاد ثيراس وملك الجزيرة، إلى دلفي، وقدّم باسم مدينته أضحية كبرى واستشار الوحي في شؤون مختلفة. فأعلنت له الكاهنة أنه يجب أن يبني مدينة في ليبيا، فأجاب كرينوس: "إني أصبحت شيخاً ثقيل الحركة عن مثل هذه الرحلة، فمُرها لأحد هؤلاء الشبان"، وأشار إلى باتّوس الذي كان برفقته.

عند عودته، لم يُعِر أحد اهتماماً للوحي، لأن أهل ثيرا لم يكونوا يعرفون أين تقع ليبيا. لكن خلال السنوات السبع التالية لم يسقط مطر على ثيرا، وجفّت من جذورها كل أشجار الجزيرة ما عدا شجرة واحدة. فلجأ أهل ثيرا إلى الوحي، فذكّرتهم الكاهنة بمستعمرتهم في ليبيا. عندئذ، وبما أنهم لم يكونوا - على ما يبدو - على دراية كافية بالجغرافيا، أرسلوا رسلاً إلى جزيرة كريت، ليسألوا إن كان أحد سكانها قد ذهب يوماً إلى ليبيا. فوجدوا رجلاً يُدعى كوروبيوس، صبّاغاً بالأرجواني، روى لهم أنه، بعد أن حرفته الرياح عن مساره في إحدى رحلاته، رسا في بلاتيا، جزيرة تابعة لليبيا. فأقنعه الرسل بمرافقتهم إلى ثيرا، ومن هناك قاد بعض السفن إلى بلاتيا، حيث تركه أهل ثيرا مزوّداً بمؤن لعدة أشهر، وهم في عجلة من أمرهم للعودة إلى وطنهم ليرووا ما عرفوه عن تلك الجزيرة.

غير أن أهل ثيرا، بين ملذّات موطنهم، نسوا كوروبيوس المسكين الذي كان يفتقر إلى كل شيء؛ إلى أن حالفه الحظ فوصلت إلى بلاتيا سفينة من ساموس كانت متجهة إلى مصر، وعلم بحّارتها بحاله فتركوا له مؤناً تكفيه عاماً كاملاً. وقد كوفئوا هم أنفسهم لاحقاً مكافأة وافرة، بأرباح طيبة في ملاحتهم التالية، وبصداقة أهل ثيرا وقورينا.

وفي هذه الأثناء، بعد أن سمع أهل ثيرا روايات مستكشفيهم، رأوا أنه من المناسب تأسيس مستعمرة في الجزيرة الجديدة. فاختاروا بالقرعة شاباً من بين اثنين في كل من كناتينهم السبعة، وجعلوا لهم ملكاً باسم باتّوس، وأرسلوهم إلى بلاتيا على سفينتين ذواتي ثلاثين مجذافاً. وكان هذا الباتّوس قد ذهب في صباه إلى دلفي، ليسأل الوحي شفاءً من مرض في حلقه؛ فبدل أن تجيب الكاهنة سؤاله، أخبرته أن فيبوس أبولو يرسله ليستعمر ليبيا، "مربية الحملان". ولم يعرف باتّوس في البداية كيف ينفذ هذه

المهمة، فاعترض ثم قطع الحديث؛ لكن الإله ابتلاه وابتلى الجزيرة بمصائب أخرى، حتى استشار الأهالي الكاهنة مرة أخرى، فأعلنت لهم مجدداً أن ازدهارهم سيعود إن أسسوا مع باتّوس مدينة قورينا في ليبيا.

أليس من الغريب حقاً هذا الإصرار من الكاهنة على إرسال مستعمرات إلى ليبيا؟ يبدو أن الكهنة الحكماء الذين كانوا يوحون بهذه الأجوبة، قد أدركوا مدى الفائدة التي قد تعود على اليونان من توجيه جزء من سكانها الزائدين، الراغبين في تحسين مصيرهم، نحو الضفة المقابلة من المتوسط، وتأسيس مستعمرات هناك تنشر حضارة الوطن الأم وتُثريها عبر التجارة مع المناطق الأفريقية الداخلية.

وربما تجد إيطاليا نفسها اليوم في ظروف لا تختلف كثيراً عن ذلك. فليكن لجمعية الاستكشاف التجاري، والجمعية الجغرافية، والنادي الأفريقي بنابولي، دور الكاهنة في زماننا!

انطلق باتّوس إذن مع المستعمرين، فأبحر حتى وصل ليبيا ثم عاد إلى ثيرا مع رفاقه. لكن أهل بلدته، بدل أن يستقبلوه بالاحتفالات والولائم كما جرت العادة اليوم مع المستكشفين المحظوظين، استقبلوه بوابل من السهام؛ فرأى سوء الحال، فعاد أدراجه واقتنع بضرورة استعمار ليبيا.

استقر المستعمرون أولاً في بلاتيا، وهي جزيرة، بحسب هيرودوت، تماثل قورينا في المساحة، ومكثوا فيها سنتين، لكن لما رأوا أنهم لا يجنون منها فائدة، تركوا فيها أحد رفاقهم وعادوا إلى دلفي. فردّ عليهم الوحي حين اشتكوا: "إن كنتَ أنت الذي لم تذهب قط إلى ليبيا، مربية الحملان، أعرف بها مني أنا الذي ذهبتُ إليها، فإني أَعجب أيّما إعجاب بحكمتك".

فهم باتّوس ورفاقه معنى هذا الجواب، فأقلعوا مجدداً؛ ولما وصلوا الجزيرة أخذوا معهم الرفيق الذي تركوه فيها، واستوطنوا مقابل بلاتيا، على القارة، مكاناً يُدعى أزيريس، محاطاً من جهتين بتلال جميلة، يجري عند سفحها جدول صغير عبر الوادي.

ويُرجّح أن تكون أزيريس هذه واقعة قرب خليج بومبة، الذي تشير إليه الخرائط الهيدروغرافية بوصفه من أفضل مراشي البحر المتوسط. وفي الخريطة الجميلة لأفريقيا تحت السيادة الرومانية، التي وضعتها هيئة أركان الجيش الفرنسي، يُحدِّد موقعها بين دارنيس - درنة الحالية - ورأس خرسونيسوس، رأس التين اليوم، الذي يحمي خليج بومبة من الريح الشمالية الغربية.

مكث اليونانيون في أزيريس ست سنوات ثم أقنعهم الليبيون - بدو ذلك الزمان - بالتخلي عنها، واعدين إياهم بأن يقودوهم إلى أرض أفضل. فقادوهم فعلاً نحو الغرب، لكن حتى لا يروا أجمل أماكنهم، المسمى إيراسا، قدّروا مسافة الطريق بحيث يجتازونه ليلاً. ولما وصلوا إلى النبع الذي كان يُعتقد أنه مقدس عند أبولو، قالوا: "أيها اليونانيون، هنا يليق بكم أن تقيموا، لأن السماء مثقوبة بفتحات" - يقصدون أن المطر يهطل هناك. وقد حدث ذلك نحو سنة 630 قبل الميلاد. وفي ذلك المكان، المحبّب لإله الفنون، أسّس اليونانيون مدينة سمّوها قورينا، نسبة إلى الحورية كيريه، ابنة ملك اللابيث في تراقيا، التي كانت - رغم جمالها - شجاعة قوية، تصارع الوحوش التي كانت تهاجم قطعان أبيها.

وذات يوم رآها أبولو على جبل بيليون تخنق أسداً شرساً؛ فافتتن بها الإله، وخطفها في عربة من ذهب، وحملها إلى ليبيا، حيث استقبلتها فينوس بحفاوة، إذ كانت تحب الإقامة هناك ثم جعلها زوجته، وخصّها بذلك البلد مملكةً لها. ومن أجمل المنحوتات التي عُثر عليها في قورينا ونقلها الأثريان الإنجليزيان سميث وبورشر إلى المتحف البريطاني، منحوتة تمثّل بالضبط مصارعة كيريه للأسد.

حكم باتّوس قورينا أربعين سنة ثم خلفه ابنه أرسيسيلاوس ستة عشر عاماً، وخلفه باتّوس آخر لُقّب بـ"السعيد". وفي عهده، أخذت الكاهنة، التي لم تكفّ عن تشجيع الهجرة، تحثّ كل اليونانيين على

ركوب البحر والانضمام إلى سكان قورينا، بهذه الكلمات: "من يذهب متأخراً إلى ليبيا الجميلة، حين تُقسِّم الأرض، سيندم". فأبحر عندئذ يونانيون كُثر إلى ليبيا، واقتسم المستعمرون مساحة واسعة من الأراضي.

لكن الليبيين وملكهم أديكران، وقد سُلبوا وأُهينوا من الوافدين الجدد، أرسلوا رسلاً إلى مصر واستنجدوا بالملك أبريس، الذي أرسل ضد اليونانيين جيشاً كبيراً. فاصطف القورينيون للقتال قرب نبع تستيس، في منطقة إيراسا، وحاربوا الغزاة وانتصروا عليهم، ولم يعد إلى مصر منهم إلا عدد قليل، حيث ثار الشعب على الملك.

أما ابن باتّوس، أرسيسيلاوس، الذي اعتلى العرش أيضاً، فدخل في نزاع مع إخوته، الذين تركوه وأسّسوا مدينة بارقة (يُرجِّح أنها في موقع قلعة المرج الحالية)، وحرّضوا الليبيين على باتّوس. ونشبت معركة هُزم فيها القورينيون، وسقط سبعة آلاف مقاتل مدجّج بالسلاح صرعى ثم خنق أخوه ليارخوس أرسيسيلاوس، وخلفه ابنه باتّوس الأعرج. وفي عهده لجأ القورينيون مجدداً إلى دلفي، ليسألوا كيف يُنظّمون أنفسهم ليكون لهم حكم كامل؛ فأجابهم الوحي بأن يستقدموا مصلحاً من مانتينيا في أركاديا. فاستشير أهل تلك المدينة، فأرسلوا لهم ديمونكس، الذي قدم إلى قورينا، واستطلع الأحوال المحلية، وقسّم السكان إلى ثلاث قبائل: الأولى من أهل ثيرا وجيرانهم، والثانية من أهل البيلوبونيز وكريت، والثالثة من السكان الأصليين. وخصّ لباتّوس أراضي كثيرة والكهانة، ومنح الشعب كل السلطة التي كانت من قبل بيد الملوك. فرضي باتّوس الأعرج بهذا الترتيب، لكن ابنه أرسيسيلاوس طالب بمكانة أجداده. فهُزم في معركة، ولجأ إلى ساموس، وجمع هناك فرقة من المغامرين، وبعد أن استشار الوحي عاد إلى قورينا واستعاد السلطة؛ لكنه قُتل بعد ذلك في بارقة لمخالفته وصايا الوحي. أما أمه فيريتيما، وكانت امرأة شديدة الطموح، ففرّت إلى مصر واستدعت الفرس الذين كان قد فتح بلادهم قمبيز. فجاء الفرس وحاصروا بارقة تسعة أشهر واستولوا عليها بالخديعة. عندئذ أمرت فيريتيما بتخوزيق أعيان المدينة وتشويه نساءهم بشكل بشع ثم تركت بقية السكان للفرس، الذين ساقوهم عبيداً حتى بلاد الباختريان، ولم يُبقوا إلا على أتباع أرسيسيلاوس، الذين ائتمنتهم فيريتيما على المدينة. وبعد أن شبعت من المجازر، عادت إلى مصر وماتت هناك، وقد أكلها الدود وهي حية. يقول هيرودوت: إن انتقام البشر إذا جاوز الحدّ بغضب مفرط، كان بغيضاً عند الآلهة.

هذا ما رواه أبو التاريخ؛ أما ما تلا ذلك من أحداث برقة فأستقيه من كتّاب آخرين. فقد حكم ابن فيريتيما، باتّوس الرابع الملقب بـ"الجميل"، دون منازع، وخلفه أرسيسيلاوس الرابع الذي غنّى بيندار انتصاراته في الألعاب البيثية. لكن نحو سنة 440 ق.م طُرد، وبه انتهى حكم الملوك. وفرّ ابنه باتّوس إلى إسبريدة، وهي على الأرجح بنغازي الحالية، حيث قُتل وأُلقي رأسه في البحر.

ومنذ ذلك الحين، حكمت قورينا نفسها جمهورية، وبلغت أَوْج ازدهارها وثرائها، رغم استمرار الخلافات والنزاعات فيها. وحين أرادوا تشريعاً جيداً، توجّه القورينيون إلى أفلاطون، لكنه رفض أن يسنّ لهم قوانين، قائلاً: إن أصعب الناس على الحكم هو من يتخيل أنه يتمتع بالرخاء، وأسهلهم هو من تلاحقه المحن.

ولما جاء الإسكندر الأكبر إلى أفريقيا وزار واحة زيوس آمون (سيوة اليوم)، خضع له القورينيون وأرسلوا إليه هدايا نفيسة. وبعد وفاته توالت الاضطرابات، حتى أخضع بطليموس لاغوس البلاد بالسلاح سنة 321 ق.م، فسُمّيت حينها "البنتابوليس" نسبة إلى مدنها الخمس الرئيسية: قورينا وبارقة وطلميثة وتوخيرا وبرنيق.

وتحت حكم البطالمة عاد الازدهار، وشُيّدت في طلميثة وتوخيرا مبانٍ فخمة لا تزال في أطلالها آثار العظمة المصرية ممزوجة بالرشاقة اليونانية. وفي تلك الأزمنة، وبرعاية البطالمة، استوطنت برقة مستعمرات إسرائيلية سرعان ما كثر عددها حتى لم يكن بلد سوى فلسطين يضم مثلها. لكن الاضطرابات تجددت، حتى أوصى أبيون بن بطليموس فيسقون بالبلاد للرومان في وصيته سنة 96 ق.م. ويبدو أن هؤلاء تركوا لها في البداية قدراً من الاستقلال الذاتي، لكنهم سرعان ما جعلوها ولاية مع كريت؛ ومارس فيها فسبازيان وظيفة "كويستور"، وربما تعرّف فيها لأول مرة على الإسرائيليين ثم ثار هؤلاء في عهد الإمبراطور تراجان، وقتلوا مئتي ألف من القورينيين والرومان؛ لكن الثورة سرعان ما أُخمدت بالدم، ومنذ ذلك الحين بدأ انحدار قورينا، وربما تسارع بنشوء المدن الساحلية توخيرا وطلميثة وبرنيق التي استوعبت تجارتها. وفي عهد قسطنطين، صارت برقة ولاية منفصلة باسم "ليبيا العليا" وأُلحقت بالإمبراطورية الشرقية، لكنها ابتُليت لاحقاً بمصائب من كل نوع: طاعون، وغزوات جراد، وزلازل. وقضى هجوم الفرس بقيادة كسرى سنة 616 على المستعمرة اليونانية الضعيفة، حتى إن العرب الذين غزوا البلاد سنة 647 لم يجدوا تقريباً أي مقاومة؛ بل اعتنق الليبيون الإسلام بحماس. لكن بغلبة القبائل الرحّالة سقطت البلاد في بربرية تامة، ولا يسجل تاريخها في العصور الوسطى سوى معارك قبائل البدو التي اقتسمتها فيما بينها.

ثم ارتبط مصير برقة بمصير طرابلس، التي سقطت سنة 1551 في يد الأتراك، وحكمتها بعد 1714 بعض الأسر المحلية القوية، وأبرزها أسرة القرمانلي. لكن إثر نزاعات داخلية، عاد الأتراك من جديد سنة 1835 واحتلوا كل البلاد من حدود تونس إلى حدود مصر التي كانوا يسيطرون عليها من قبل.

وكانت بلاد "برقة" (كما تُسمى الآن) خاضعة من قبل لباشا طرابلس، لكنها في سنة 1879 أُعلنت ولاية مستقلة، ووُلّي عليها باشا يتبع مباشرة الآستانة.

وفي العصور القديمة اشتهرت برقة بخصوبتها وثرائها. كانت تنتج بوفرة الحبوب والزيت والعسل والماشية، وبخاصة الأغنام والخيل. يقول هيرودوت: "إن أرض قورينا، وهي الأعلى في ليبيا، تتميز بثلاثة مواسم رائعة. فسواحلها غنية بالثمار التي تنضج أولاً، فيُحصد الزرع ويُقطف العنب. وما إن تُجمع المحاصيل حتى تنضج ثمار منطقة التلال ويمكن جمعها. وبعد هذه المحاصيل، تنضج ثمار المنطقة العليا، بحيث يُشرب المحصول الأول ويُؤكل حين يصل الأخير. وهكذا، طوال ثمانية أشهر من السنة، يظل القورينيون منشغلين دوماً بالحصاد."

وكانت شجرة الزيتون تنمو في تربة برقة نمواً رائعاً، وتشهد غابات الزيتون البرّي الكثيرة التي شاهدناها بالقرب من درنة على مدى اتساع تلك الزراعة قديماً.

وكانت محاصيل القمح وفيرة كمحاصيل صقلية، وتُصدِّر إلى إيطاليا واليونان. أما الأزهار، التي لا تزال حتى اليوم تُضفي جمالاً على بعض أرجاء البلاد، فكانت تمنح العطور والروائح لمخادع اليونانيات والسيدات الرومانيات.

وسأتحدث لاحقاً عن "السلفيوم القوريني"، أثمن منتجات البلاد.

وكان العسل ينافس في جودته عسل جبل هيميتوس، ولا يزال العرب يجمعونه ويهدونه إلى أصدقائهم البعيدين. أما القطعان والمواشي التي تغنّى بها بيندار، فلا تزال ثروة أهل البادية. وكانت الخيول بخاصة مطلوبة لسرعتها وقدرتها على التحمل، وكانت عربات الحرب تُصنع بإتقان يوازي مهارة سائقيها.

واشتهرت مستعمرة قورينا اليونانية أيضاً برجال بارزين في الفنون والعلوم. فقد بلغت العمارة ونقش الأحجار الكريمة فيها درجة عالية من الإتقان، تشهد عليها الأطلال الفخمة التي تُشاهَد في غرينّا وطلميثة وتوخرا، والأحجار المنقوشة الكثيرة التي لا يزال بالإمكان الحصول عليها من العرب بثمن زهيد، إذ يجدونها في الحقول والمقابر. كما يمكن جمع طائفة لا بأس بها من الأواني ذات الطراز القريب من الإتروسكي، وقد وُجد بعضها في المجموعات التي أحضرناها معنا وأهدتها جمعية الاستكشاف التجاري إلى وزارة المعارف العمومية. وتشهد على عبقرية النحاتين تلك التماثيل الرائعة التي عثر عليها سميث وبورشر، والتي تُعدّ اليوم من مفاخر المتحف البريطاني؛ وبعد حفرياتهما المنظمة الواسعة، لم يبقَ لنا سوى القليل نلتقطه، ومع ذلك تمكنّا من العثور على رأسين قديمين منحوتين، أحضرناهما إلى إيطاليا، وآمل أن يكونا ضمن المجموعات الأثرية بروما.

أما اللوحات القديمة فلم يبقَ منها إلا القليل، ولا يوجد هذا القليل في قورينا بل في متحف اللوفر والمتحف البريطاني. ويكفي ذلك للدلالة على أن القورينيين بلغوا في هذا الفن أيضاً درجة ملحوظة من الإتقان لا سيما في دقة الرسم وجمال الحركة.

لكن عبقرية القورينيين تألقت أكثر في الأدب والفلسفة منها في الفنون. فتُذكر أشعار كاليماخوس، ومؤلفات إراتوستينس الذي كان شاعراً وفيلسوفاً ورياضياً وجغرافياً، وأشهر منهما أريستيبوس وابنته أريتي وابنه أريستيبوس أيضاً، الذين أسسوا وحافظوا على شهرة "المدرسة القورينائية" في الفلسفة حتى الجيل الثالث. ولسوء الحظ لا نعرف مذاهب هذه المدرسة إلا من كتابات خصومها؛ ويبدو أنها كانت في الأصل تُعلّم، خلافاً للرواقيين والكلبيين، أن الخير الأسمى في الحياة يكمن في اللذة، وأن الشهرة والصداقة والفضيلة نفسها لا تستحق الرغبة فيها إلا بقدر ما تخدم اللذة التي يمكن التمتع بها في اللحظة الراهنة. وكان مذهب القورينائيين إذن عقيدة متعة فلسفية، تهدف إلى تقدير كل الخيرات التي منحتنا إياها العناية الإلهية؛ ورغم قربها من مذهب الأبيقوريين، فقد اختلفت عنه في أن الأوائل جعلوا غاية الإنسان في السعي النشط وراء اللذة، بينما جعلها الآخرون في سكون العقل والتحرر من الألم. كانت باختصار عقيدة لا تتنافر مع الذكاء المثقف والعادات الدؤوبة للشعب الذي نشأت فيه ثم على يد تلاميذ أريستيبوس اللاحقين، وأبرزهم ثيودوروس وهيغيسياس وأنيكريس، تغيرت مبادئ المدرسة تغيراً ملحوظاً؛ حتى قيل إن الفضيلة نفسها تستحق الاحتقار، وأنه لا وجود لأي ألوهية، وأنه بما أنه لا يمكن تجنب الألم كلياً، فإن الحياة لا قيمة لها عند الحكيم. ويذكر شيشرون في "مناظرات توسكولوم" أن كتاباً لهيغيسياس تسبب في انتحارات كثيرة، حتى منع أحد البطالمة مناقشة احتقار الحياة علناً.

ويُذكر أيضاً من بين حكماء قورينا ذلك الفيلسوف كارنيادس، الذي كان في "العروسين" لمانزوني سبباً لتأملات كثيرة عند دون أبونديو. عاش نحو 200 سنة ق.م، وكان تلميذاً لديوجين الرواقي ومؤسس "الأكاديمية الجديدة"؛ وارتقى بعدها إلى شهرة عالية، حتى اختير سنة 154 ق.م، مع ديوجين وكريتولاوس، سفيراً لأثينا إلى روما. ورغم انغماسه في التأملات الفلسفية حتى نسيان الطعام، واستخدامه نبات الخربق لإيقاظ ملكاته العقلية، فقد عاش حتى التسعين من عمره.

كما اشتهر في العصور القديمة أطباء قورينا، الذين انقرضت سلالتهم الآن تماماً، إذ لا يوجد أطباء من أهل البلاد فيها حالياً.

وإلى جانب هيرودوت، كان أكثر كتّاب العصور القديمة اهتماماً بقورينا: باوسانياس، وسترابون، وأرسطو - الذي لم يصلنا للأسف كتابه عن تلك المنطقة - وبليني، وسكيلاكس، وفي عصور أحدث سينيسيوس أسقف طلميثة وليون الأفريقي، الذين وصفوا الخراب الذي آلت إليه البلاد. وقد لخّص

العالم الدنماركي ثريغه كتابات القدماء في مؤلَّفه الدقيق "Res Cyrenensium" المنشور باللاتينية في هذا القرن.

ورغم قرب برقة من مصر التي جِيبت ودُرست مراراً، ظلت مقارنةً بغيرها غير مستكشَفة من قبل الرحالة المحدثين، ربما بسبب الصعوبات الكبيرة التي واجهت حتى الآن الوصول إلى شواطئها والتنقل في داخلها، وهي صعوبات كانت مبالغاً في تصوير مخاطرها. زار برقة في القرن الثامن عشر الفرنسي لومير، الذي أوفده لويس الرابع عشر لاستكشاف الآثار؛ وتلاه شو وبروس. لكن الرجل الذي أتيحت له في زمن أقرب إلينا فرصة أفضل لمعرفة البلاد، كان الجنوايّ ديلا تشيلّا، الذي التحق لهذا الغرض سنة 1817 طبيباً في حملة أرسلها ابن باشا طرابلس لمعاقبة القبائل المتمردة في مناطق بنغازي ودرنة. فقطع براً، مع الجيش التركي الصغير، كل المسافة من طرابلس حتى الحدود المصرية، وراء خليج بومبة، وترك لنا في رسائله إلى الأستاذ فيفياني، المطبوعة بجنوة سنة 1819، وصفاً حماسياً لجمال المناطق التي عبرها، ومعلومات ثمينة ودقيقة عن الآثار والعادات وطباع السكان. ويلفت هذا الرحّالة، في مؤلَّفه، مراراً انتباه الإيطاليين إلى الخصوبة الاستثنائية لأراضي برقة، وإلى نقاء واعتدال هوائها، ويحثّهم على إقامة مستعمرات فيها، مع الحفاظ على حسن العلاقة مع الرعاة الأصليين.

ثم زارها سنة 1821 الإنجليزي بيتشي ثم الرسام الفرنسي باشو، الذي دخلها من جهة مصر، وتوجه أيضاً إلى واحة أوجلة. وترك كلاهما تقارير دقيقة، مزوّدة برسوم كثيرة؛ غير أن قدراً لا بأس به من الخيال والشاعرية يتخللها، على عادة ذلك الزمان الذي لم تكن فيه الواقعية بعدُ سائدة في الفنون. وأكثر دقة قليلاً المناظر التي يزخر بها كتاب جيمس هاملتون القيّم " Wanderings in North Africa"، الذي استقيت منه معلومات غير قليلة مفيدة لهذا التقرير. فقد قام المؤلف سنة 1852 برحلة من مالطا إلى بنغازي فلبيار وسلنطة ثم قورينا ودرنة، وعاد عبر طلميثة وتوخرا ثم زار واحتَي أوجلة وجالو وواحة سيوة، حيث احتُجز طويلاً شبه أسير وفي خطر دائم على حياته.

وكان أكثر حظاً القبطان سميث والقائد بورشر، اللذان أقاما سنتي 1860 و1861 أشهراً عديدة في قورينا، وبدعم وحماية من الحكومة الإنجليزية التي أرسلت لمساعدتهما حتى سفينة حربية إلى مرسى سوسة، وقاما بحفريات مهمة، رأينا ثمارها الآن تُعرض في المتحف البريطاني. ومع ذلك، واجها هما أيضاً نزاعات متكررة مع العرب، وبسبب سلوك البحّارة الإنجليز المتهور والاستفزازي، تصاعدت عداوة السكان الأصليين حتى مُنع المستكشفان من نقل بعض أهم التماثيل التي استخرجاها. وقد وصفا إقامتهما وأحداثهما في مؤلَّف جميل، مزوّد برسوم توضيحية، نُشر بلندن سنة 1864.

وبعدهما، الوحيد الذي زوّدنا بمعلومات عن برقة ورسم لها خريطة طبوغرافية دقيقة، هو الرحّالة الألماني الشهير غيرهارد رولفس. ففي عامي 1868 و1869 قام، بتكليف من جلالة إمبراطور ألمانيا الحالي، برحلة من طرابلس إلى بنغازي بحراً ثم سلك تقريباً نفس طريق هاملتون، لكن بالاتجاه المعاكس، حتى قورينا وعاد، لكنه لم يتمكن من بلوغ درنة بسبب قسوة الفصل. وعبر واحتَي أوجلة وجالو، ورأى واحة جغبوب، مقر رئيس الطريقة السنوسية، لكن دون أن يتمكن من دخولها؛ وتمكن بالمقابل من زيارة واحة سيوة بدقة، وأطلال معبد زيوس آمون الشهير ثم اجتاز الصحراء إلى الإسكندرية بمصر. وبعد أن مكث فترة في روما، لفت انتباه حكومتنا إلى البلاد التي جابها، وإلى أهمية التجارة التي يمكن إقامتها فيها، وسهولة الوصول منها، عبر طرابلس وبنغازي، إلى مناطق أفريقيا الوسطى.

التحضير للرحلة

على متن سفينة "عافت البحري"، غرة مارس 1881

في ربيع العام الماضي، وأنا على وشك مغادرة القاهرة، حيث أمضينا خمس سنوات من حياة كانت غالباً مضطربة، لكنها كانت دائماً متنوعة وممتعة، ذهبتُ لأصافح جاري اللامع، الدكتور جورج شفاينفورت، العارف العميق بأفريقيا، الذي أضاء برحلاته الاستكشافية الجريئة وتقاريره العلمية الغزيرة، مناطق النيام نيام والمومبوتو التي كانت حتى ذلك الحين مجرد بقعة بيضاء على الخرائط الجغرافية.

وجدته منهمكاً في قراءة رسالة وصلته لتوّها من طرابلس، من صديقنا المشترك وزميل دراستي القديم، القبطان كامبيريو، مدير المجلة الجغرافية "المستكشف". وانطلاقاً من الأخبار الواردة فيها، قال لي: "لماذا لا تفكرون أنتم الإيطاليين قليلاً في برقة، تلك الشبه جزيرة الواقعة بين طرابلس ومصر؟ إنه البلد الذي ينبغي أن توجّهوا إليه كل اهتمامكم، لإقامة محطات تجارية ومستعمرات زراعية فيه. أرضه خصبة جداً؛ وفي الشتاء تكثر الأمطار التي تعوّض إلى حد بعيد جفاف الصيف؛ وتنمو فيه غابات من الزيتون والسرو وكل صنوف الأشجار المفيدة؛ وفيه موانئ طبيعية آوت مرة الأسطول الفرنسي بأكمله؛ ومنه يكون الوصول الأسهل والأقصر إلى وداي وإلى أفريقيا الوسطى؛ وداخل البلاد، الذي كان يوماً مقراً لحضارة يونانية مزدهرة، أصبح الآن شبه صحراء لا يرتاده سوى البدو الرحّل بقطعانهم؛ والحكومة العثمانية، التي لا تجني من تلك المنطقة فائدة تُذكر، ستكون على الأرجح مستعدة لتقديم شروط عادلة لمن يريد استعمارها. ويمكن للإيطاليين أيضاً أن يبنوا، مع مرور الوقت، خط سكة حديد إلى مصر، فيؤمّنوا لأنفسهم بشكل دائم مرور البريد والمسافرين إلى الهند، الذي قد يُحوَّل عن شبه الجزيرة الإيطالية إلى حد كبير، حين تُمدِّد سكك النمسا الحديدية حتى بحر إيجه".

هذه الكلمات، التي نُطق بها بلهجة اقتناع عميق، من رجل بمثل هذه المكانة في المسائل الجغرافية، أثّرت فيّ وكأنها وحي، ومنذ ذلك الحين أصبح التفكير في برقة شعاعاً منيراً وسط ضباب المستقبل الغامض الذي كان ينتظرني في إيطاليا.

وعند وصولي إلى لومبارديا، التقيت بكامبيريو، الذي كان قد تشرّب الفكرة نفسها؛ فتبادلنا وعداً بزيارة برقة معاً في الشتاء التالي. وحين انتُخب بعدها نائباً لرئيس "جمعية الاستكشاف التجاري في أفريقيا" المتمركزة بميلانو - التي كانت قد انفصلت عن "جمعية التجارة الأفريقية" وأُعيد تأسيسها على أسس جديدة - اقترح ونال موافقة على إقامة محطة تجارية في بنغازي، المدينة الرئيسية لذلك الإقليم، وإرسال ثلاثة مندوبين اختارتهم الجمعية بعد اختبار. وكان هؤلاء السادة بوتيليا وماموللي وباستوري. غادر الأول في ديسمبر 1880، والآخران في يناير التالي.

وفي فبراير الماضي قررت لجنة الجمعية أن يسافر نائب الرئيس كامبيريو أيضاً إلى بنغازي، بهدف تفقّد تلك المحطة التجريبية ثم التوجه إلى درنة لدراسة إقامة محطة ثانية هناك. وتقرر أيضاً القيام ببعثتين إلى الهضبة في برقة، إحداهما تجارية والأخرى علمية وفنية مكلّفة خصوصاً بجمع مقتنيات حيوانية ونباتية وأثرية.

وحين سُئلتُ إن كنت مستعداً لتولّي هذا الجزء الثاني من المهمة، ظننتُ في البداية أن المهمة تفوق طاقتي؛ لكن مع ذلك، إذ رأيتُ أنه في الظروف القائمة سيكون من الصعب أن يقبلها غيري، وأن فرصة جديدة لزيارة برقة لن تتكرر قريباً بهذه السهولة، أعطيتُ جواباً بالموافقة. وقد أبدى لي الأستاذان دي سانكتيس وبيديتشينو، أستاذا علم الحيوان وعلم النبات في جامعة روما، عوناً كبيراً، إذ أعدّا بعناية

فائقة الأدوات والأوعية اللازمة لجمع عينات التاريخ الطبيعي؛ وتقرر الرحيل. وهكذا، بينما تجري في روما سباقات الخيل، ننطلق نحن على متن سفينة شراعية قنديّة، والريح تـدفعنا من الخلـف، نحـو ساحل بربرية.

المغادرة من إيطاليا - مالطا - الغرق - الوصول إلى بنغازي

لم تكتمل بعد سنة كاملة منذ غادرنا أفريقيا، وها نحن مجدداً على وشك الإبحار نحو تلك الشواطئ!

أفريقيا، أرض غامضة ومشؤومة؛ ما الفتنة القوية التي تجذب أبناء أوروبا القلقين نحو صحاريك وغاباتك وبحيراتك؟ أهي حمّى المجهول، هذا الداء الأزلي للبشرية التي تضيق بها حدود العالم المعروف؟ أم هو ملل هذه الحضارة الواهنة المتصنّعة الأنانية، التي تجعل المرء يفضّل الخيمة المتنقلة على الصالات الأنيقة؟ أم هو طموح إضافة اسم المرء إلى أسماء كثير من المستكشفين المشهورين؟ أم هو أمل فتح آفاق جديدة خصبة وصحية أمام المحرومين من الحظ، الذين يذهبون بالآلاف ليجربوا حظاً مشكوكاً فيه في الأمريكيتين البعيدتين؟ نحن أنفسنا نطرح هذه الأسئلة، لكن كيف نجيب، ونحن أيضاً واقعون في قبضة الحمّى الأفريقية؟

أنجزنا الاستعدادات على عجل، وغادرنا روما في 22 فبراير 1881؛ وكانت معي زوجتي، التي أرادت أن تكون رفيقتي وكانت لي عوناً كبيراً في هذه الرحلة كما في رحلاتي الشرقية السابقة. وكانت نيّتنا أن نركب من نابولي إلى مالطا، حيث كان من المفترض، وفق الاتفاق، أن نلتقي بالقبطان كامبيريو ونتوجه معاً إلى بنغازي على متن الباخرة "أليغرا" التي كان الإعلان عن رحيلها في نهاية الشهر.

سار الجزء الأول من الرحلة وفق البرنامج المقرر، الذي تضمّن أيضاً الاستقبال الخشن من نبتون، مقابل ذلك الاستقبال اللطيف الذي حظينا به دائماً - وهي سمة تميّز البحرية الإيطالية - من قبطان وطاقم السفينة الصغيرة السريعة "ماركو بولو" التابعة لشركة فلوريو، التي أتممنا معها العبور، متوقفين يوماً واحداً في مدينة مسينا المرحة.

إن انطباع ميناء لا فاليتا مهيب، وانطباع المدينة ودود، فريد بتناقضاته المجتمعة فيها. فبينما تُذكّرنا الأزقة والشوارع شديدة الانحدار التي يجب أن نعبرها للوصول إلى الفندق بمدينتنا جنوة، تُذكّرنا الشرفات المسقوفة البارزة من كل البيوت بـ"المشربيات" في مصر والآستانة؛ لكن ما يُخرجنا من هذه التخيلات الشرقية، يأتي في اللحظة المناسبة، الدويّ الأجوف للجسر المتحرك. أما الأسوار العالية والبوابات الحديدية الضيقة والأبراج المسنّنة التي تحميها، فتنقلنا إلى أزمنة إقطاعية بحتة، لولا أن المظهر الأنيق المرتب لشوارع الوسط والكتابات الإنجليزية الكثيرة تذكّرنا أن الروح الحديثة لألبيون الصناعية قد بسطت طلاءها على هذه الصخرة الإيطالية-الأفريقية. ويلفّ ضوء أصفر متلألئ بحلة دافئة القصور والأكواخ، والصخور والحدائق، والأسوار وخلجان البحر المليئة بالبواخر والسفن الشراعية والمدرعات، مانحاً المشهد كله طابعاً جنوبياً واضحاً لا يشابه مع ذلك شيئاً مما رأيناه في أي مكان آخر.

ومن بين خصائص مالطا نلاحظ أيضاً عربات الأجرة الجميلة، على شكل سلة، مغطاة بخيمة، تجرّها خيول ممتازة، تفوق كثيراً في أناقتها وراحتها عربات نابولي وعربات روما.

لم نجد كامبيريو في مالطا، إذ أعاقته العواصف التي هبّت في تلك الأيام على سواحل تونس، لكننا وجدنا بدلاً منه مندوبَي الجمعية، مامولّي وباستوري، اللذين كانا منذ أكثر من شهر ينتظران رضا إيولوس ليبحرا نحو بنغازي. وإذ علما أن الباخرة "أليغرا" ستتأخر كثيراً في الرحيل انتظاراً للحمولة، كانا قد حجزا مكاناً على متن "عافت البحري"، سفينة شراعية قنديّة جميلة جديدة، كانت جاهزة للإبحار عند أول ريح مواتية. سرعان ما أصبحنا أصدقاء؛ بل، حتى لا نمضي في مالطا أفضل مواسم الاستكشاف الأفريقي بلا طائل، قررنا أن نرافقهما في العبور، وتأكدنا في هذا القرار بعد زيارة مقارنة دقيقة بين السفينة الشراعية والباخرة "أليغرا" التي كانت قيد الإصلاح.

استمرت ريح الشمال الشرقي المعاكسة يومين آخرين، لكن التوقف في مالطا كان محبِّباً لنا، لأنه أتاح لنا فرصة زيارة لا فاليتا العامرة بذكريات الفرسان، والتزوّد بالمؤن ولوازم السفر، المتوفرة هناك بكثرة وجودة، وإن كانت بأسعار أعلى قليلاً منها في إيطاليا. ولاحظنا من بينها أسرّة المخيّم الإنجليزية الصنع، المريحة وسهلة النقل، التي كنا قد بحثنا عنها عبثاً في ميلانو ونابولي وروما.

كنا في أواخر أيام الكرنفال، ويبدو المالطيون في حالة مرح. فالجادات والساحات والميناء الطويل وحتى الشوارع الفرعية تعج بحركة دائبة من الناس ذوي المظهر القوي المفعم بالحيوية. قوارب وبحّارة ملتفّون بمعاطف بنيّة؛ جنود بريطانيون بزيّهم الأحمر اللامع، صارمون منتصبون؛ متطوعون مالطيون يذكّروننا بحرسنا الوطني السابق؛ فلاحون وفلاحات بثياب الأعياد؛ إنجليز ظرفاء ضاحكون، مع أطفال ممتلئين مجعّدي الشعر.

لكن السمة المميزة لهذا الحشد الملوّن هي المالطية الجميلة، التي، وفاءً للزي الوطني، ترتدي السواد وتضع على رأسها نوعاً من الشملة، سوداء أيضاً وغالباً من الحرير، تنسدل من جانب واحد عند الأذن لتغطي الكتفين والخصر، وبينما تبقى مشدودة وبارزة على الجبين، تحيط بلطف بالغ بيضاوية الوجه، وتضفي تعبيراً خاصاً على تلك العيون الكبيرة النارية، المحجوبة بخمول برموش طويلة. ويبدو من المستحيل أن يُبرز هذا الزي، رغم اتساعه الذي لا يرسم القوام إطلاقاً، أناقة مرتديته؛ لكن المالطية الماكرة تعرف ذلك جيداً، فترفع، بدلال محبب، طرف الثوب لتُظهر جانباً من الثوب الداخلي الأبيض المطرّز، وطرف قدم صغيرة منتعلة بعناية.

جميلة ومنتظمة شوارع التجار والشارع الملكي وشارع القديس بولس، بقصور أنيقة ذوقها رفيع، ومتاجر جيدة التجهيز، تخدمها فتيات إنجليزيات شقراوات أنيقات، يبدو دائماً أنهن يقلن لك، بكل ما فيهن من لطف وتحفظ: "الوقت من ذهب". وجميلة جداً الساحة الملكية، المزيّنة بالأشجار والمحاطة بمبانٍ فخمة، ومن بينها قصر الحاكم، المقر القديم لكبار قادة الفرسان. زرنا الجزء المتاح للزيارة من الداخل: قاعات واسعة، وأثاث رصين، وسجاد نفيس دقيق؛ ومحفوظة في صناديق زجاجية وموضع تقدير كبير، بُلّة من البابا باسكال الثاني تمنح جزيرة رودس لفرسان القدس، وقرار من الإمبراطور شارل الخامس يمنح مالطا لهؤلاء الفرسان أنفسهم ثم سيوف وحراب ودروع وبنادق قديمة حتى ذوات الإعادة من الخلف، وخوذات وتروس ودروع كاملة، كلها من أزمنة الفرسان، وفي وسط هذه الذكريات الحربية لرجال من حديد، يفرش النجّار الحرير والشاش، ويرتّب موظف البوفيه الطاولات، استعداداً للحفل التنكري الكبير الذي سيقيمه سعادة الحاكم مساء الغد.

صباح يوم السبت الأخير من الكرنفال، أيقظتنا باكراً موسيقى حيوية من مزامير وأبواق وطبول لا تخلو من أصالة وإيقاع عسكري. أسرعنا إلى النافذة، ورأينا، بين الحشد الذي كان قد ملأ الشارع في تلك الساعة، مجموعة من الشبان، بعضهم يرتدي زياً إسبانياً بسترات مخملية، وآخرون متنكرون بزي تركي وعمائم من حرير دمشقي، يقفزون ويتراقصون بمهارة كبيرة بخطى إيقاعية، على أنغام الموسيقى، ويتصارعون بعضهم مع بعض بعنف، بعصيّ وسيوف خشبية طويلة. إنها "الرقصة الحربية"، وهي عرض تقليدي بقي من زمن كانت فيه مالطا ملكاً للفرسان، يمثّل الحرب مع الأتراك. لكن في ذلك الزمان كان الفرسان أنفسهم من يؤدي هذه الرقصة، مرتدين دروعهم المسيحية والسرقنية، ومسلّحين بسيوفهم المجيدة التي شربت دماء المعارك. أما الآن فيرقصها عامة الناس، جائلين في الشوارع والساحات، ومتوقفين أمام أبرز البيوت والفنادق؛ وفي نهاية كل رقصة تقدّم فتاة صغيرة نشيطة، مزيّنة بحليّ ومكللة بالورود، صحناً تنهمر فيه العملات الصغيرة وأحياناً حتى الشلنات. ورغم انحسار الطابع البطولي القديم، يبقى المشهد خيالياً جميلاً، يُحيي في المخيلة أزمنة الحملات الصليبية الرومانسية.

تتبعنا طويلاً صدى تلك الموسيقى الغريبة، التي راحت تتلاشى تدريجياً بين البيوت العالية، ويرددها صدى بعيد من الأسوار والجدران القديمة التي يسير عليها بلا مبالاة حرّاس ألبيون.

في فترة بعد الظهر تُغلق الدكاكين وتمتلئ الشوارع بالأقنعة والتنكرات. وبدعوة كريمة من أحد سادة مالطا - والمالطيون جميعاً كرماء مع الغرباء - صعدنا إلى كازينو البورصة الأنيق واستمتعنا من الشرفة بمشهد الجادة. ولا تختلف أقنعة مالطا كثيراً عن أقنعة إيطاليا، وتتمتع بحرية حركة قد لا تكون مسموحة في مكان آخر، كما تثبته مسرحية إيمائية كبرى لم نفهم معناها للوهلة الأولى. يفتتح الموكب صف من شخصيات وقورة، بزي رسمي، برؤوس حيوانات ولافتات على ظهورهم؛ ثور يمثل رئيس المجلس البلدي، وذئب أمين الصندوق، وحمار الطبيب، وهكذا دواليك ثم يتقدم نعش مغطى يحمله مدنيون ثم نعش ثانٍ يحمله متنكرون بزي كامل لجنود إنجليز. يتوقف الموكب أسفل شرفتنا؛ فيمنع الجنود مرور النعش الأول، ويفتحونه ويخرجون منه دمية بزي مدني يرمونها أرضاً؛ أما النعش الثاني، نعش الجنود، فيمرّ منتصراً؛ فتنشأ فوضى كبرى؛ يتفكك الموكب ويختلط بالحشد الذي يصخب ويصفق ثم يعيد تشكيل نفسه، ويواصل ويكرر المشهد نفسه أبعد قليلاً.

وشرح لنا السادة الذين كانوا يشاهدون معنا من الشرفة أن قراراً حديثاً لمجلس الحكومة قد منع نقل الفقراء إلى المقبرة في توابيت، بينما ظل ذلك مسموحاً للعسكريين. ومن هنا نشأ أصل هذه المسرحية الهزلية، التي، رغم قلة بهجتها بالنظر إلى مناسبتها، تحظى بإعجاب كبير لدى العامة.

لكن حسبنا حديثاً عن الكرنفال، الذي يحتفل به المالطيون بحماس، شأنه شأن الاحتفالات الدينية، حماسٍ يعكس قرب البلاد من إيطاليا، بينما في لهجتهم، التي يريدون الآن رفعها إلى مرتبة لغة، تغلب العربية على الإيطالية.

ويدعونا البحر الأزرق بابتسامة مغرية، ويجعلنا شوقنا إلى أفريقيا نستثقل كل تأخير.

صباح يوم الاثنين الأخير، بعد أن هدأت عاصفة الشمال الشرقي التي كانت تدفع الأمواج البيضاء نحو أسوار القلعة، هبّت نسيمة غربية مواتية جداً لعبورنا. دفعنا ثمن التذكرة، 50 ليرة للفرد، وسارعنا إلى الصعود على متن السفينة الشراعية، التي خرجت بعد الظهر من الميناء بأشرعة منتفخة بنسيم المساء. وكان معنا في الرحلة، إلى جانب مندوبَي الجمعية، بعض البدو من ضواحي بنغازي، عائدين من الإسكندرية حيث كانوا قد ذهبوا لبيع الأغنام؛ أناس طيبون مرحون، تمكّنا من الحديث معهم بلهجتنا العربية المصرية.

قطعنا خلال الليل مسافة قليلة، وفي اليوم الثاني ساد هدوء شبه تام، حتى إننا فقدنا في المساء رؤية تلال مالطا. وفي اليومين التاليين تحولت الريح إلى شمالية غربية، مصحوبة بزخات مطر؛ وتصاعدت شيئاً فشيئاً حتى اشتدّت، ودفعتنا بسرعة ثماني أميال في الساعة نحو الساحل الأفريقي. وفي اليوم الخامس بدأت العاصفة تهدأ، لكن البحر ظل هائجاً وظلت السفينة الشراعية تتقاذفها الأمواج بلا رحمة. فقال لنا القبطان، وهو قندي الأصل لكنه مسلم الديانة، وكنا نستطيع التفاهم معه بشكل ما بالعربية، إننا أصبحنا الآن على بعد أميال قليلة من بنغازي، لكن بما أنه لا يمكن الدخول إلى الميناء بهذا البحر الهائج، فمن الأفضل أن نبقى نتقلّب في عرض البحر حتى الغد. فأُنزلت جميع الأشرعة عدا الأشرعة الأمامية، وبقيت السفينة تتراقص على الموج الميت، بمتعة يسهل تخيّلها للركاب المساكين.

عند الساعة الرابعة صباح اليوم السادس، وقد هبّت نسيمة منعشة، رفع القبطان الأشرعة واستأنفنا السير، لنصل بحسب حساباته إلى بنغازي نحو العاشرة صباحاً. كان الليل لا يزال حالكاً، وكنا، مسرورين بالخبر السار، نحاول أن ننعم بالراحة التي افتقدناها منذ ثلاث ليال.

لكن الأقدار كانت قد قررت غير ذلك. وفجأة هزّنا اصطدام عنيف، تلاه صرير طويل مشؤوم لا شك، لقد جنحت السفينة! فنشأت عندئذ فوضى مروّعة؛ إذ مالت السفينة الشراعية بشدة على جانبها الأيسر، وأصبحت قعرتها تلامس القاع، لكنها ظلت تتقاذفها الأمواج، التي كانت تنهمر بصخب رعدي على السطح وتغرقه بالكامل؛ وانكسر الصاري الرئيسي حتى قمة صاري المقدمة، وأخذت الشراعان الكبيران، وهما لا يزالان منتفخين بالريح، يبذلان جهداً عقيماً لتحريرنا؛ يصرخ القبطان بأعلى صوته: "الشراع الخلفي، الشراع الخلفي"، لكن لا أحد يسمعه: كل الطاقم في حالة رعب لا يوصف؛ من يدعو باليونانية، ومن بالتركية، ومن يستغيث بالعذراء، ومن بالله والرسول؛ ويهتز البدو كالأشباح في عباءاتهم البيضاء. أما نحن الإيطاليين الأربعة فكنا لا نزال الأكثر هدوءاً ونفكر فيما ينبغي فعله؛ رصدنا القارب الصغير المعلّق بين الحبال وصرخنا بالبحّارة أن ينزلوه؛ فقطعوا في عجلتهم حبال التثبيت، لكنهم لم يتمكنوا من إمساك القارب الصغير الذي سقط في البحر وبدا وكأنه ضاع.

وفي هذه الأثناء تتوالى ضربات الأمواج دون انقطاع وتزداد عنفاً. هل تستطيع السفينة الصغيرة مقاومة عنفها، أم أنها ستتحطم؟ هذا هو السؤال المروّع الذي يفرض نفسه في ظلمة الليل، بينما لا نملك أي فكرة عن موقعنا. وإذ أصبحنا عاجزين عن الفعل، حاولنا على الأقل الاحتماء من الأمواج التي كانت، بلا هوادة، تجلدنا وتدحرجنا بين البراميل والألواح والحبال التي تملأ السطح؛ فلجأنا إلى القارب الكبير، المربوط في وسط السفينة، والذي كانت قد أخلته امرأة عربية كانت طوال العبور تختبئ فيه محجوبة عن الأنظار الغريبة، كأنه حريمها المؤقت. طلبنا من البحّارة فكّ ذلك القارب، لكنهم رفضوا لأنه ثقيل جداً؛ فبقينا فيه، تصطك أسناننا من البرد، ننتظر الأحداث.

وبعد نصف ساعة بدت لنا أبدية، بدأت السماء تبيضّ من جهة الشرق، وفي ضوء الفجر الغامض خُيّل إلينا أننا نميّز، على مسافة ما، جسماً داكناً يظهر بين حركة الأمواج؛ أهي صخرة، أم قارب؟ هل يكون نجدة؟ إنه القارب الصغير، الذي كنا نظن أن البحر قد ابتلعه، ولا بد أنه توقف بين الصخور. ومع اتضاح السماء، لاحظنا أن خط الأفق، من الجهة التي على وشك أن تشرق منها الشمس، كان داكناً وثابتاً؛ إنها إذن اليابسة، أرض أفريقيا، التي نتجه إليها! ولا تبعد عنا سوى مئة متر تقريباً! عندئذ يعود الأمل إلى كل القلوب، ومعه النشاط إلى البحّارة. فيربط بعضهم حبلاً طويلاً حول خصورهم ويلقون بأنفسهم سباحة متجهين إلى القارب الصغير؛ وبعد جهد كبير، مستعينين بصندوق نفط سقط من السفينة، ينجحون في تفريغ القارب من الماء ويجرّونه إلى السفينة الشراعية ثم يثبّتون الحبل بمرساة على الشاطئ، ويبدأون حركة ذهاب وإياب لإنقاذ الركاب، ونترك نحن الأولوية عن طيب خاطر للعرب، الأكثر منا خوفاً. لكن ها هو سبب جديد للقلق؛ على كثبان الرمل المحاذية للشاطئ، يظهر عباءة بيضاء ثم أخرى وأخرى؛ جماعات من البدو، كلهم مسلحون ببنادق طويلة، يتجهون نحو مكان الرسوّ؛ فهل يريدون ممارسة "حق الغرقى"، ذلك العرف البربري من العصور الوسطى، الذي لا يزال - للأسف - مستخدماً على الشواطئ الأفريقية؟ من المؤكد أن البحّارة لا يبدون رأياً حسناً فيهم، لأنهم يمنعوننا من حمل أي شيء من متاعنا، مشيرين إلى أن البدو قد يقطعون أعناقنا!

وحين نقل القارب الصغير باقي الركاب، نزلنا نحن أيضاً؛ ننزلق على طول الحبل، وبعد دقائق قليلة، مبلّلين حتى العظام، يحملنا البحّارة الطيبون على ظهورهم وينزلوننا على الأرض. وأخيراً يمكننا أن نقول مع قيصر: أخافك أيها الأفريقي.

وبعد أن دفّأنا أطرافنا المتجمدة قليلاً عند نار صغيرة، أُشعلت بأعواد الشاطئ الجافة وأمددناها بمحتويات بعض صناديق النفط التي كانت جزءاً من حمولة السفينة الشراعية وسقطت في البحر، ولاحظنا أن البدو، بدل أن يكونوا معادين، يبدون مستعدين لمساعدتنا، اقتربنا منهم وسألنا رجلاً أسود ضخماً، كان وجهه يوحي بثقة أكبر من غيره، عن المسافة إلى بنغازي. ففهم عربيتنا وأجابنا: ثلاث

ساعات، لكن، بالنظر إلى ساقيه الطويلتين، فكّرنا أنها ستكون بالنسبة لنا ضعف ذلك على الأقل. على أي حال لا بد من الانطلاق، ولو لإعادة الدورة الدموية إلى أجسامنا. ألقينا نظرة حزينة على "عافت البحري"، التي كانت أنيقة رشيقة، وأصبحت الآن مائلة بحزن على جانبها؛ وبصحبة الرجل الأسود وبعض البدو، الذين شكّلوا حراسة طوعية لنا، انطلقنا عبر الكثبان، التي تتخللها هنا وهناك برك من الماء المالح. وفي الطريق، أخبرتنا أدلاؤنا أن مكان الغرق يُدعى "سيدي خليفة"، نسبة إلى مرابط أو وليّ مسلم، يوجد ضريحه قريباً. ولم نلبث أن أبصرنا من بعيد قبابه البيضاء الثلاث، تظللها أعذاق النخيل، لكن الوصول إليه لم يكن سهلاً، لأن الأقدام كانت تغوص في الرمل الناعم وكنا مرهقين من التعب والانفعالات.

وتحيط بالضريح بضعة أكواخ حجرية تشبه، عدا سقفها المسطح، بيوت جبالنا الألبية. كنا نأمل أن نجد فيها قليلاً من الحليب والخبز، ولو كان مخبوزاً على الطريقة العربية؛ لكن للأسف كانت القطعان في المرعى، وامرأة بدوية عجوز، خائفة بعض الشيء في البداية من ظهورنا المفاجئ ثم تلطف حين رأت بيننا امرأة، لم تستطع أن تقدم لنا سوى إبريق ماء مالح شربناه بنَهَم وكأنه شراب فاخر. وحين ارتوينا من العطش المحرق، طالبت المعدة أيضاً بحقوقها، وبدا لنا الخبز، الذي كنت قد تزودت به قبل مغادرة السفينة وتمكنت من استخراج فتاته من جيوبي مبللة بماء البحر، لذيذاً. وإذ لم يتمكن البدو من تقديم طعام لنا، أحضروا لنا بضعة حمير صغيرة كثة الشعر كانت ترعى حول الأكواخ، وبعد أن حلّوا القيود التي كانوا قد ربطوا بها أرجلها لمنعها من التسلل إلى حقول الفول الخضراء، وضعوا على ظهرها سرجاً عريضاً مغطى بالحصير. أما اللجام والركاب فطبعاً لا وجود لهما؛ حاولنا تعويض الأول بربط حبل صغير حول رقبة الحيوانات الصبورة، التي ما إن شعرت بنا على ظهرها حتى نصبت آذانها وبدأت هرولة نشيطة، لكنها سرعان ما تخلّت عنها لتمشي بخطى هادئة. والهواء المنعش المنعش الذي يوسّع الرئتين، والشمس التي تبثّ حرارة نافعة في أطرافنا المتيبسة، وجدّة المشهد، وذكرى الغرق الذي نجونا منه، كل ذلك ساهم في إعادة إحياء ذلك المزاج الطيب الذي ينبغي أن يكون رفيقاً لا ينفصل عن الرحّالة؛ وخُيّل إلينا وكأننا ننطلق في إحدى تلك النزهات على الحمير التي كنا نقوم بها في القاهرة بصحبة مرحة، ولا نزال نحتفظ بذكرى محببة عنها.

نقطع سهلاً واسعاً، يحيط به في الأفق البعيد خط طويل من الجبال الزرقاء؛ الأرض حجرية، تتخللها هنا وهناك منخفضات من الطين الأحمر لا زراعة، لكن بالمقابل عشب وافر، مزركش بالكامل بأزهار صغيرة بألف لون.

وبعد ساعتين نصل إلى بحيرة كبيرة؛ ممتلئة بالماء بسبب الأمطار الأخيرة، لكن بعد شهرين، كما يخبرنا البدو، ستجفّ وتصبح مستودعاً للملح؛ ونلاحظ بالفعل على حافتها بعض الترسبات الملحية. نعبرها من مكان يصل فيه الماء إلى ركبتي الحمير ثم نواصل السير باتجاه الجنوب الغربي نحو غابة صغيرة، نصل إليها بعد ساعة أخرى من المسير. أشجار النخيل التي تتألف منها منخفضة كثيفة الأوراق؛ ويبدو أنهم لا يقلّمونها بالعناية التي يوليها فلاحو مصر لشجرتهم المفضلة. وبعد قليل تلفت انتباهنا جماعات من الحمير الصغيرة، محمّلة ببرميلين صغيرين معلّقين على الجانبين، تذهب وتجيء في طريق على يميننا؛ إنهم مورّدو الماء لمدينة بنغازي، التي لا تكفيها الصهاريج القليلة المتوفرة في بعض البيوت الأوروبية فقط. وبمحاذاة بحيرة أخرى، نصل إلى كوخ يقيم فيه موظفو الجمارك الأتراك المكلفون بتحصيل الرسوم على المنتجات القادمة من الريف. يسمحون لنا بالمرور دون إزعاج، ونحقق أخيراً دخولنا غير المنتصر إلى بنغازي المنشودة.

نسير بين أسوار طويلة، تتمايل فوقها النخيل، وتقطعها بين حين وآخر أبواب صغيرة غامضة، مزخرفة بالزخارف العربية ثم بين أزقة ضيقة، تحفّها دكاكين صغيرة ومغطاة بعرائش من سعف النخيل، تمنح

ظلاً لذيذاً لأعيننا المسكينة، المتعَبة من انعكاس المياه والرمال ثم نخرج إلى ساحة جميلة، تحفّها مقاهٍ يجلس فيها أهل بنغازي المسالمون يأخذون "الكيـف" مـدخّنين النارجيلـة والسـجائر. وعلى أحـد الجانبين يقوم المسجد، صغير منخفض، لكن يعلوه مئذنة ضخمة، بطراز مختلط تركي عربي؛ وبجانبه بوابة، محاطة بشبك حديدي، لـ"سوق الجامع"، البازار الكبير المظلم، الذي تفوح منه رائحة عطريـة لاذعة من عبير شرقي. وفي كل طريقنا عبر المدينة، كان العـرب الـذين نصـادفهم في الشـوارع أو المتربّعون أمام الدكاكين، ينظرون إلينا بنظرة بين الودّ والدهشة، سـائلين مرافقينـا إن كنـا نـاجي السفينة التي جنحت عند سيدي خليفة، إذ كان خبر الحادثة قد سبقنا. وكان بعض الأكثر فضـولاً قـد انضموا إلى موكبنا، وفي الساحة أصبح الحشد كثيفاً لدرجة استحال معها علينا عبورهـا على حميرنـا المتعبة. فترجّلنا، وبعد أن أجبنا بقدر الإمكان الأكثر إلحاحـاً، سـألنا بـدورنا عن طريـق القنصـلية الإيطالية.

قيل لنا إنها في شارع فيلا، وهو "بيرا وكالاتا" بنغازي، حيث توجد تقريباً كل البيوت الأوروبية؛ وفعلاً، بعد أن شققنا طريقنا بكثير من المرفقين، وصلنا إليها لاهثين منهكين لا يزال الحشد يتبعنا، ولا يمل من التفرج علينا. كنا حقاً في منظر جميل! نصف عراة، بمنديل مربوط على الرأس بدل القبعة، بوجوه شاحبة جائعة، وشعر ملتصق بالجبين، وثياب لا تزال تقطر ماء البحر.

كان الوكيل القنصلي السيد روسّوني، الذي عُلم مسبقاً بوصول الناجين، واقفاً عند باب القنصلية، فدعانا بلطف إلى الدخول؛ وأغدقت علينا عائلته الكريمة العـروض واللطـف، وقـدمت لنـا قهـوة الشـرق التقليدية. وبينما كنا نتذوقها بلذة، امتلأت القاعة بأفراد الجالية الأوروبية الصغيرة: أولهم وصل السيد جوليو ليفي، تاجر مالطي معروف مقيم في بنغازي، كنا موصَى به من جمعية ميلانو ثم دخل، بسوطه وحذائه الطويل، القبطان بوتيليا، مندوب الجمعية، الذي كان في طريقه على صـهوة جـواده لتفقّـد زراعي، فلم يكفّ عن الدهشة حين رأى رفاقه، الذين كان ينتظرهم منذ زمن طويل قادمين من البحر، يصلون على ظهور الحمير. فتولى أمرهما وقادهما إلى بيت المحطة الاجتماعية الواسع المريح؛ أما نحن فقبلنا في تلك اللحظة ضيافة بيت السيد ليفي، حيث استقبلتنا زوجته الشابة الجميلة، إيطالية الأصل لكن مولودة في طرابلس، بذلك اللطف والانفتاح النابعين حقاً من القلب. ارتدينا، كناجين حقيقيين، ثياب مضيفينا، لنستبدل ثيابنا التي كانت لا تزال ملتصقة بالجلد، وبعد كل تلك المغامرات، تمتعنـــا أخيراً باللذة التي لا توصف بالجلوس في سُهرة مرحة أمام مائدة عامرة، والراحة في سرير لا يهتز.

لكن المتاعب لم تنته بعد. لم يكن لدينا في بنغازي شيء من متاعنا، سوى الثياب القليلة المنشورة تحت الشمس؛ وكل الباقي كان لا يزال على متن السفينة، التي كان وضعها، بين الأمواج والبدو، غير مطمئن على الإطلاق. وبمساعدة السيد ليفي وشقيقه، اللذين كانت لهما على متنها حمولة كبيرة من التبغ تم استرجاع جزء من متاعنا، الذي وصلنا بعد يومين على ظهور الجمال؛ لكن في فوضى عملية الإنقاذ، تُركت على السفينة الأسلحة والمؤن والأدوات الخاصة بالمجموعات، وفي بعض الصناديق أيضاً بعض حزم من التالر التي لم نتمكن من وضعها في أحزمتنا.

وأفاد سائقو الجمال أن السفينة الشراعية، بعد أن خفّت حمولتها كثيراً، قد أبحرت من جديـد؛ وكنـا ننتظرها إذن في الميناء من ساعة إلى أخرى. لكن يمرّ يوم، يومان، ثلاثة أيام؛ تصفو السماء، تهدأ الريح، يصبح البحر كالزيت، ولا تظهر أي سفينة في الأفق؛ وسارية مكتب الصحة، التي تتجه إليها كل الأنظار، تصرّ على البقاء دون علم. كم من الإشاعات في بنغازي، حيث كان كثـير من المواطـنين معنـيين بالحمولة التي لا تزال على متنها! "القبطان محتال؛ توجّه إلى موطنه كريت؛ يريد أن يُحدث عطباً ولن يصل بنغازي إلا بعد أشهر؛ كانت السفينة تُسرّب الماء وأصلحها في خليج بومبـة؛ بـل، لقـد غـرقت

بالفعل!" كم كان القلق على مصير البحّارة المساكين؛ وكم كان ندمنا نحن على أننا لم نفكـــر على الأقل في مالطا بالتأمين على أمتعتنا!

لكن هذه المرة لم يكن كهنة الشؤم على صواب. وذات صباح جميل، رفرف علم مكتب الصحة بمرح على الصاري، ودخلت "عافت البحري"، التي يمكن التعرف عليها من بعيد من صاريها المكسور، إلى الميناء بأشرعة منشورة. فرح عظيم في بنغازي، ومظاهر تعاطف من السفن الأخرى، الــتي تســابقت لمساعدة السفينة الشراعية في مناورة الرسوّ غير السهلة. طرنا إلى متنها، وبعد مصافحة ودّية للقبطان والبحّارة، استعدنا أمتعتنا سليمة. وإذ تحررنا من هذا القلق، أصبح بإمكاننا الآن أن نتفرغ للاستعدادات للرحلة إلى الداخل.

الإقامة في بنغازي - تشكيل القافلة

صباح اليوم التالي لوصولنا إلى بنغازي، وصل فجأة القبطان كامبيريو ومعه ستة وثلاثون صندوقاً. كان قد وصل إلى مالطة بعد رحيلنا، ولم يرغب في تضييع أسابيع بانتظار الباخرة "أليغرا"، فتمكن، بمقابل سخي ساهم فيه أيضاً السيد أربيب من مالطة، من أن يُحوِّل عن مساره الباخرة الإنجليزية الكبيرة "أوزيري" التابعة لشركة موس، التي كانت متجهة إلى الإسكندرية لنقل حجاج مكة. ولو كنا انتظرنا يوماً آخر في مالطة، لأتيحت لنا نحن أيضاً فرصة رحلة مريحة جداً، لكننا ما كنا لنعيش تلك المشاعر التي منحنا إياها البحر والبدو.

وما إن وصل كامبيريو حتى أظهر تلك الهمة والنشاط اللذين جعلاه محل تقدير كبير في نشر الدراسات الجغرافية بإيطاليا. وكان الهدف الرئيسي من رحلته القيام ببعثة إلى واحة جغبوب، الواقعة في الصحراء الليبية على الحدود المصرية باتجاه سيوة، معبد زيوس آمون القديم. وهناك يقيم سيدي المهدي، رئيس السنوسيين، تلك الطريقة الإسلامية التي تمارس نفوذاً معنوياً ودينياً كبيراً على سكان شمال أفريقيا، وبخاصة بدو طرابلس وبرقة.

وقد أورد المؤلف في حاشية طويلة ملخصاً عن الطريقة السنوسية، مستقياً معلوماته من رسالة للمستشرق الفرنسي هنري دوفيرييه نُشرت عن "أخوية سيدي محمد بن علي السنوشي"؛ فمؤسسها كان فقيهاً جزائرياً من قبيلة مجاهر، تلقى تربيته على مبادئ الطريقة الشاذلية الصوفية، ورغم معارضة بعض رجال الدين له في بداية أمره، استطاع بحزمه ونشاطه أن يجمع حوله أتباعاً كثيرين حتى غدت طريقته، في زمن قصير نسبياً - لم تتجاوز آنذاك سبعة وأربعين عاماً منذ تأسيسها سنة 1837 - من أوسع الطرق الصوفية انتشاراً ونفوذاً. ويقيم نجله سيدي محمد المهدي في جغبوب على رأس أكثر من مليوني تابع، يمتد نفوذه المعنوي من تمبكتو إلى الآستانة ومن المغرب إلى الصومال، عبر أكثر من مئة وعشرين زاوية منتشرة في هذا الإقليم الواسع. ويذكر المؤلف أيضاً أن غياب التوصيات اللازمة لدى زعماء هذه الطريقة كان، في رأي بعضهم، من أهم أسباب فشل بعثة الرحالة الألماني رولفس الأخيرة، الذي هوجمت خيمته ونُهبت في واحة الكفرة أثناء توجهه إلى وداي، ولم ينجُ هو ورفيقه شتيكر من الموت إلا بحماية أحد الشيوخ الأوفياء.

ولتفادي مثل هذه الأخطار على مندوبي جمعية الاستكشاف التجاري في تنقلاتهم المقبلة، رغب كامبيريو في إقامة علاقات ودية مع سيدي المهدي، وتقديم الهدايا الثمينة التي كانت الجمعية قد أعدتها لهذا الغرض من مصانع إيطالية. لكن قبل الشروع في البعثة، كان لا بد من الحصول على إذن مسبق من الشيخ، إذ لا يجرؤ أي عربي على اصطحاب غير مسلم إلى جغبوب دون ذلك الإذن.

فبدأت، بوساطة السيد ليفي، مفاوضات مع الشيخ الروحي للسنوسيين في بنغازي ومع وكيلهم التجاري المقيم هناك أيضاً؛ وتقرر إرسال رسالة إلى سيدي المهدي، صيغت باتفاق بيننا وتُرجمت إلى العربية بواسطة مترجم، مع مراعاة كل الشكليات التي تقتضيها تلك اللغة المتحفظة. وشُرحت فيها النوايا السلمية لجمعية ميلانو، وهدفها في إقامة علاقات تجارية وودية مع سكان البلاد، ورغبتها في تقديم فروض الاحترام والهدايا لسيدي المهدي الذي بلغت شهرته إيطاليا أيضاً. فقرأ الوكيل الرسالة وأجاب كامبيريو بأن سيدي المهدي سيسعد بمعرفته، لكنه على الأرجح لن يقبل الهدايا؛ ومع ذلك، وبما أنه كان سيتوجه إلى جغبوب خلال أسبوع، فقد تعهد بإيصال تلك الرسالة، محذراً بأن الأمر يستغرق أربعين يوماً على الأقل للحصول على رد من الشيخ، لأن الطريق طويل والجمال لا تسير بسرعة. لكن عندئذ قد يكون الموسم قد تأخر كثيراً لمواجهة تلك الصحراء الرهيبة، الخالية من الآبار على امتداد طويل، حيث يسود

في الربيع طاغية مطلق هو "القبلي"، الريح المحرقة التي تجفف القِرَب وتهدد القوافل بأفظع أنواع الموت!

أمام هذه الاعتبارات، قرر كامبيريو على الفور القيام بجولة سريعة في الداخل، برفقة شقيق السيد ليفي الذي تولى دور المترجم، والمندوب مامولي، المكلف خصوصاً بدراسات الزراعة والأراضي الصالحة للفلاحة. واتُّفق على أن تنطلق قافلتنا نحن، ذات الغرض العلمي والفني، والتي يجب أن تسافر بمزيد من الراحة، بعد ذلك بوقت، حين يصبح الموسم أكثر ملاءمة للمرتفعات، وأن يُلحق بنا المندوب باستوري، الذي سيهتم خصوصاً بملاحظات الأرصاد الجوية.

قيل ففُعل. وبمساعدة السيد ليفي، العارف بالبلاد وعاداتها، استأجر كامبيريو الجمال، واشترى الخيول والسروج والمؤن؛ وفي أيام قليلة أصبح كل شيء جاهزاً، وانطلقت قافلة الرئاسة في 12 مارس، يرافقها لمسافة طويلة عدد كبير من سكان بنغازي المسيحيين والأتراك، الذين انضموا إلينا ليتمنوا لها رحلة سعيدة. سلكت طريقها على امتداد الساحل نحو توخرة والمرج؛ أما قافلتنا فستسلك اتجاهاً أكثر جنوبية، لتشمل بذلك مساحة أوسع من البلاد في استكشافاتها.

وقد كتب كامبيريو عن رحلته وملاحظاته تقريراً بالغ الأهمية، نشره تباعاً في المجلة الشهرية الجغرافية "المستكشف"، الجهاز الرسمي لجمعية الاستكشاف التجاري في أفريقيا.

أما نحن، الأقل ضغطاً من ناحية الوقت، فقد استطعنا إتمام استعداداتنا براحة أكبر. لجأنا إلى كرم السيد ليفي نفسه، الذي كان قد أتيحت له في المفاوضات السابقة فرصة مقارنة مطالب العرب بالأسعار الحقيقية في السوق. وبعد نقاشات طويلة وضجيج كثير، استأجرنا ستة جمال، أصبحت في اليوم الأخير سبعة، بسعر 14 قرشاً (2.52 ليرة) يومياً لكل واحد؛ ولا شك أنه كان سيكون أوفر شراؤها ثم بيعها في نهاية الرحلة، لكننا نُصحنا بعدم ذلك، لأن الجمّالة لا يعتنون إلا بحيواناتهم الخاصة، ولأن الجمل، مهما بدا قوياً وخشناً في مظهره، هو حيوان رقيق جداً.

ثم اشتُري لي بالمزاد العلني في ساحة بنغازي حصان جميل رمادي داكن، أبلق القوائم الثلاث، بنجمة على جبهته، بسعر 1520 قرشاً (291.50 ليرة)؛ ولركوب زوجتي وباستوري استأجرنا حمارين جيدين بسعر 15 قرشاً يومياً.

وكنا قد جهزنا مؤوننا من الطعام في مالطة، لكن كان لا بد من شراء التمر والأرز والبقسماط والزيت للجمّالة، والشعير للركائب، والسروج واللجم والأحزمة والقِرَب للماء، وأغطية للخيول والحمير، وشباك لحمل الجمال، ودلواً من الجلد لاستخراج الماء من الآبار؛ باختصار، كمية من الأغراض لا يتصورها من لم يسافر إلا في أوروبا. وبعد جولات كثيرة في البازار، تمكنا، بمساعدة السيد ليفي والسيد جيوفاني روسّوني، ابن الوكيل القنصلي الإيطالي، من شراء كل شيء بأسعار معقولة. بقيت الخيام. وبلطف نادر، وافق التاجر المحلي الثري عيسى ني قدير، بناءً على طلب من المصرفي الإيطالي السيد حسن، الذي كان كامبيريو موصى به لديه، أن يُعيرنا خيمة دائرية جميلة جداً كان قد اشتراها بالقاهرة، حيث تُصنع مثل هذه الخيام لأداء فريضة الحج.

وهذه الخيام، التي تُستخدم أيضاً عادة في رحلات القوافل بمصر وفلسطين، هي من أكثر ما يمكن أن يكون راحة وسهولة نقل في هذا النوع، إذ لا تحتاج إلا إلى عمود واحد في وسطها، وبينما تحمي جيداً من الشمس والماء والبرد، فإنها توفر أكبر مساحة ممكنة للحركة ووضع الأمتعة.

وأعارنا خيمة أصغر لعربنا الوكيل القنصلي النمساوي-المجري السيد بتروفيتش، الذي كان كريماً معنا بلطفه، وأعطانا أيضاً رسائل توصية لشقيقه في درنة.

وقد أبدى باشا بنغازي علي رمالي، الذي كنت قد زرته فور وصولي، حرصاً كبيراً على سلامتنا، حتى لا تتكرر حادثة رولفس. فزوّدنا بـ"بويولدك"، أي خطاب توصية دوري لسلطات البلاد حتى درنة، وأراد أن يمنحنا أيضاً حارسين لمرافقتنا.

لكن المهمة الأصعب كانت اختيار أفراد القافلة. سيطول ويمل سرد كل المراحل التي مرت بها المفاوضات، والموافقات التي أُعطيت ثم سُحبت، والشروط والمطالب. كان الأمر أشبه بتشكيل وزارة. وأخيراً، بفضل صبر لا ينضب من السيدين ليفي وروسّوني تم تجنيد جيشنا الصغير بشكل نهائي.

أسمح لنفسي أن أستعرض للقارئ أفراده، بادئاً بالفرسان.

سيدي مفتاح العدولي، الدليل. نموذج بديع من الأرستقراطية الأفريقية. طويل القامة، رياضي البنية، متناسق التكوين بشكل رائع، وجهه جاد لا يتغير، لكن من خطوط فمه، المزين بشاربين رفيعين مدببين، تلمح سخرية دقيقة. يرتدي البرنس الأبيض الذي يلبسه البدو، وإذا اشتد البرد أو هطل المطر، يضيف فوقه قفطاناً تونسياً مخططاً بالأبيض والأسود؛ ورغم التفافه بهذه الأغطية الفضفاضة الخشنة، تظل مشيته وكل حركة من حركاته أنيقة دوماً. يحمل دائماً مسدسين في حزامه، وفي السفر يحمل على كتفه بندقية تونسية جميلة - تعمل بالصوان طبعاً - مطعّمة بالفضة ومزودة بحربة. يعرف القراءة بالعربية لكن لا يكتبها؛ ذكاؤه متقد وشغوف بالمعرفة؛ يعرف جيداً كل طرق برقة وجبالها وأوديتها، وله معرفة واسعة بالنباتات التي تنمو فيها وبكل ما يتعلق بتربية المواشي، إذ يملك هو نفسه قطعاناً كثيرة. ينتمي سيدي مفتاح إلى عائلة العدول، أصلها من طرابلس، لكنها مصاهرة لأبرز عائلات قبيلة البراعصة التي تسكن هضبة برقة، وكان والده محمد العدولي دليلاً لهاملتون وسميث وبورشر ولرولفس. ورث عن أبيه سمعة الرجل الشجاع الحكيم في آن، وفي المسائل الخطيرة يُستمع إلى رأيه باحترام. يُقال إن مفتاح لم يكن فيما مضى صارماً جداً في مراعاة القرآن، الذي يأمر بالامتناع عن الخمر ومسكرات الكفار الجهنمية؛ لكنه الآن لا يشرب إلا الماء، ويُرجّح أنه ينتمي إلى الطريقة السنوسية: والمؤكد أنه أدى فريضة الحج إلى جغبوب وزار سيدي المهدي الذي يُكنّ له إجلالاً كبيراً، وإن كان يتحدث عنه بأقل قدر ممكن من الكلام. رصين، هادئ، شبه لامبالٍ في الظاهر بما يحيط به، قليل الكلام عادة، لكنه يصبح مرحاً كثير الحديث في سهرات المخيم، حين يروي قصصاً طويلة عن الحرب ومغامرات الحب، يُصغي إليها العرب بآذان مرهفة وعيون تلمع انفعالاً.

ومثل كل البدو، سيدي مفتاح جميل وفخور على صهوة جواده؛ لكن، في تناقض غريب مع تلك الشخصية الرجولية الجسورة، يقضي وقته، سواء على السرج أو في أوقات الراحة، في خياطة الثياب لزوجته ولجاريته السوداء المفضلة، ويزينها بالتطريز والزخارف، بصبر ودقة تليقان براهبة. ومنذ أن رأيناه أعجبنا وكسب تعاطفنا فوراً، لهذا السبب: حين قدّمه لنا السيد ليفي بصفته دليلاً، لم يُجب إلا بـ"نعم" و"حسن" على كل شروطنا؛ لكن حين اتُّفق على كل شيء، وضع يده على لحيته وقال لنا بجدية هادئة: "حياتي، حياة أسرتي، قبيلتي بأكملها، كلها لكم؛ الويل لمن يمسّكم بأذى !" ثم ابتعد دون أن يودعنا، لأن عرب البربر، على قدر ما هم متكلفون في الاستقبال، هم فظّون عند الوداع؛ كأنهم يكرهون توديع الناس. يمتطي سيدي مفتاح فرساً شابة داكنة اللون.

مصطفى شاووش، رئيس الحرس الذي منحنا إياه الباشا. من مواليد قونية بالأناضول، لكنه أسمر كالمولّد، ربما لخليط دم من أصل أسود، طيب، وفيّ، شجاع حتى التهور لا يعرف الكلل ووفيّ لواجبه، كان لنا عوناً كبيراً. كان ينام في العراء قرب خيمتنا، وبعد أن يؤدي صلواته كمسلم صالح، كان دائماً

أول من ينهض ويمتطي جواده. كان يتولى تموين القافلة ولا يبالي بالانحرافات الطويلة، طالما أحضر لنا قربة مليئة باللبن، الذي لا يرفضه البدو أبداً للمسافر. رجل في الخمسين من عمره، كان جندي فرسان وخدم ضمن حرس السلطان المخلوع عبد العزيز، بل نشأ طفلاً في قصر الحريم، ومن هذه التنشئة الأولى بقيت لديه ميول لخدمات صغيرة، شبه منزلية. يعيش الآن منذ سنوات عديدة في بلاد برقة، وهو عريف الزبطية في المرج، حيث يقود ستة عشر رجلاً. مهمته المعتادة هي التجول بين مخيمات البدو وتحصيل الضرائب، لكن يبدو أنه يقوم بذلك بإنسانية، لأن البدو في كل مكان يعاملونه كصديق قديم، وهو بدوره يترجم احتياجاتهم ويقود إلينا المرضى الذين يطلبون الدواء. له علاقة وثيقة بشيوخ الزوايا، ويُرجّح أنه أيضاً ينتمي إلى السنوسيين. متديّن بعمق ودقيق في مراعاة كل تعاليم القرآن، لكنه لا يُظهر أي تعصب ضد المسيحيين الذين يعبدون هم أيضاً إلهه نفسه. باختصار، هو رجل يُوثق به، وأعتقد أنه يمكن الاعتماد عليه اعتماداً كبيراً عند الحاجة.

يرتدي مصطفى شاووش زياً عسكرياً أخضر باهتاً مرقعاً في مئة موضع، لكن حذاءيه الطويلين يمنحانه هيئة عسكرية؛ يمتطي حصاناً رمادي حديدي، ليس جميل الشكل، لكنه وديع، قوي التحمل، وماهر في تجاوز الممرات الصعبة في الجبال.

أبو شرتيلة، من درنة، الزبطي الآخر الذي منحنا إياه الباشا للحراسة، نموذج مختلف جداً وطريف إلى حد بعيد؛ اسمه محمد، لكنه لا يُعرف إلا بلقب أبو شرتيلة، أي "أبو الأسمال"؛ يبدو كبيراً جداً في السن، ولا يعرف بطبيعة الحال عمره الحقيقي، لأن سجلات الأحوال المدنية في درنة لا تزال أمنية بعيدة المنال؛ لكن، بحساب سنوات الجفاف والخصب، يقدّر العرب أنه تجاوز الثمانين. ومع ذلك فهو قوي البنية، دائم المرح، كثير المساعدة لا يكل من رواية النكات التي تُضحك الجماعة ومن إنشاد الأغاني. أما الشجاعة، فلا تبدو حقاً فضيلته الغالبة؛ في المقابل، ينام قليلاً جداً، وحين كنت أقوم بجولتي الليلية وكان الجميع غارقين في النوم، كنت متأكداً أنني سأجد أبا شرتيلة المسكين عينيه مفتوحتين، يترقب ألا يقترب أي لص من الخيام. يرتدي برنساً أبيض ويضع على رأسه "طاقية" كبيرة حمراء، يضيف فوقها العمامة في المناسبات الرسمية. هو سرّاج القافلة وخياطها وإسكافيها، ومزوّداً بإبر خشنة، يرقع السروج ويخيط الأحزمة بسرعة كبيرة. كان أيضاً رئيس فرقتنا الموسيقية، وحين تهب ريح القبلي المحرقة وتتباطأ القافلة المنهكة في مسيرها، لم يكن عليّ إلا أن أقول له: "رَنِّ، رَنِّ، يا أبا شرتيلة" (أي غنِّ، غنِّ) فيشرع في إنشاد أغانٍ مرحة، يجيبه الجمّالة بالجوق؛ فترفع الجمال أعناقها وتنصب الحمير آذانها، ويبدو أن الجميع يستعيدون نشاطهم وحيويتهم.

لا أدري إن كان ذلك نفوراً من الخصومات أو حكمة حصيفة، لكن عند أدنى خلاف ينشأ في القافلة، يجد أبو شرتيلة طريقة للابتعاد وجعل الناس ينسونه، بحيث لو دعت الحاجة إلى ذراع الزبطي القوية، لوجب الاكتفاء بمعرفة أنه كان موجوداً. وليس نادراً أننا وجدناه، بعد غيابه بضع ساعات، ممدداً براحة في ظل شجرة، وبجانبه فرسته البيضاء أشبه بشخصية من سفر الرؤيا، التي يكرّس لها عناية خاصة، ربما لأنها في العمر والمظهر تنسجم تماماً مع صاحبها. وحين تظهر الفرس وفارسها فجأة من بين شجيرة أو يطلّان فوق منحدر، يبدوان حقاً كأنهما ظهور خيالي من أساطير القرون الوسطى.

ننتقل الآن إلى المشاة.

أولهم يقدّم نفسه مينا، الذي كان يُقال إنه رئيس الجمّالة، ولا ينبغي أن أقول عنه إلا خيراً، لأنه بعد عودتنا إلى بنغازي بقليل، طارت روحه إلى حضرة محمد. لكن حبّ الحقيقة، الذي أعتبره أول واجب لأي رحّالة، يُلزمني بالاعتراف أنه كان أقل أفراد القافلة إمتاعاً. شيخ متذمر دائماً، غير راضٍ أبداً، كسول، شرِه، ينسى دوماً الطريق التي يدّعي معرفتها، ولم تكن له أي سلطة على بقية الجمّالة، الذين

كانوا يسخرون منه بدل احترامه، رغم أنه كان قد اختير خصيصاً ليقودنا ويحرس الأمتعة. من مواليد مصراتة بطرابلس، كان يتمتم بلهجة لم نتمكن أبداً من فهمها، بينما كنا نتفاهم بشكل معقول مع كل الآخرين. فليكن السلام على روحه.

لم يكن شقيقه الأصغر خليفة مختلفاً كثيراً عنه، لكن معه على الأقل كنا نستطيع التحدث، لأنه، بعد أن قام برحلة مصر عدة مرات، كان قد تعلم عربية ضفاف النيل.

وكان أيضاً من مواليد مصراتة، لكن من أبوين أصلهما من السودان، الزنجي الضخم عبد الله، الذي كان يبدو كتمثال من برونز يمشي. كان هو أيضاً كسولاً ومشاكساً، لكن في المقابل مرحاً، محباً دائماً للحديث ورواية النكات، ومخلصاً جداً لنا؛ عموماً شخصية محببة رغم عيوبه.

وكان الجمّالان الآخران، من مواليد بنغازي، مليّح وإبراهيم، شخصيتين محببتين جداً أيضاً. الأول، وديع، هادئ، مسالم، مجتهد، كان "كبش فداء" رفاقه، الذين كانوا يتلذذون بتحميل جمله - وهو حقاً طيب جداً - كل الأمتعة الثقيلة المزعجة التي لا يريدون وضعها على جمالهم، حتى اضطررنا مراراً للتدخل بسلطتنا لتوزيع... الأحمال بالتساوي.

أما إبراهيم فكان، على العكس، وسيماً، متحمساً، مبالغاً بعض الشيء في الكلام، يتباهى ببندقيته الطويلة ذات الحربة وبأكياسه الأنيقة للبارود والرصاص التي يحملها على كتفه، ويحلف بلحية النبي أنه سيبيد كل من يجرؤ على لمسنا. ورغم تدينه، كان يرى أن شرب قليل من النبيذ أو عرق المستكة في بعض المناسبات ليس خطيئة كبيرة.

أما خادمنا أحمدة فكان متجاوزاً تماماً كل التحفظات في مسألة المشروبات، إذ كان، بمجرد إتاحة الفرصة، يعبّ النبيذ والمسكرات حتى الثمالة. رجل طيب رغم ذلك، ورامٍ ماهر، لكنه كان يحب الصيد وصيد السمك والإمساك بالثعابين أكثر من الطبخ وترتيب الخيمة. كانت له ادعاءات أنيق، وكان يحب استعراض صدرية مزركشة بالزهور الكبيرة، اشتراها في درنة، بلدته. كان الوحيد الذي يعرف بعض الكلمات الإيطالية، وفي اللحظات المهمة كان يدّعي دور الترجمان، لكن للأسف بنجاح ضئيل. حين نعطيه أمراً بالإيطالية، كان يجيب دائماً: "حسن"، لكنه لا يفعل شيئاً حتى نكرر له الأمر نفسه بالعربية. لكنه لم يكن يخلو من فطنة معينة، ونحن مدينون لمهارته بجزء كبير من مجموعاتنا في علم الحيوان.

هؤلاء كانوا رفاق رحلتنا؛ إليهم عُهدت حياتنا وأمتعتنا. وإذا كنت، حرصاً على الصدق، قد أشرت إلى عيوبهم، فلا بد أن أقول في المقابل إن إخلاص الجميع لم يتزعزع أبداً، وأن وعودهم بالدفاع عنا حتى النهاية، في حال الخطر، تحققت. اعتبروا جميعاً، دون استثناء، أن مهمة شرفهم هي إعادتنا سالمين إلى بنغازي؛ وفي لحظات مرحهم وانبساطهم، كانوا يضيفون :"لا إلى بنغازي فحسب، بل ليُعدكم السماء سالمين وراضين إلى وطنكم وأحبائكم، ولتقولوا إن عربكم كانوا أوفياء ومخلصين لكم!"

المغادرة إلى الداخل - ليتي - هَوّة سغاي - بو مريم - النقعة - وادي الحسن

عند ظهر يوم 20 مارس، ظهرت الجمال والخيول والحمير عند باب المحطة، وامتلأ الزقاق الهـادئ بالضجيج والصخب. استغرق ربط الأحمال وتثبيتها على ظهور الجمال وقتاً طويلاً جداً، إذ كانت تحتج بخوارها وأحياناً تنهض وتحاول الفرار؛ كما وضع الجمّالة صبرنا على محك قـاسٍ ببطئهم ومطـالبهم. وأخيراً، في الساعة الرابعة، أصبح كل شيء جاهزاً، وأعطت نفخة بوق إشارة الانطلاق.

بعد أن خرجنا من أزقة بنغازي الضيقة، المكتظة بالعرب والزنوج الذين يتمنون لنا رحلة سعيدة، وصلنا إلى السبخة، السهل الرملي الواسع جنوب المدينة، الذي يتسلل إليه البحر حين تهب رياح الشـمال، وينحسر حين تهب الريح من البر. وجدناها لا تزال ممتلئة بالماء بسبب عاصفة الشمال الغربي في الأيام الماضية؛ فعبرها الرجال والجمال والخيول والحمير خوضاً.

خرجنا من الماء المالح، واتجهنا جنوب شرق، تاركين عن يسارنا مرابط سيدي حسين، الضريح المبجّل خصوصاً لدى الزنوج، الذين، كحال كل المهتدين الجدد، هم الأكثر تعصباً بين المسلمين، وسرنا في سهل متموج، مكسوّ حيناً بعشب قصير، وقاحلاً صخرياً حيناً آخر. وبعد ساعة توقفنا فوق تلة بو عطلي، التي لا تزال بنغازي تُرى منها، وودّعنا الأصدقاء الذين رافقونا حتى ذلك الحد ثم استأنفنا السير.

تسير القافلة بنظام جيد. في المقدمة سيدي مفتاح مع الحارسـين، يتـداولون في الطريـق الـواجب اتباعها ثم نحن الثلاثة الإيطاليون مع أحمدة، الذي يجمع، بإشارة منا، النباتات لمجموعاتنا النباتية، فيملأ بها الوعاء المعلّق بسرج حمار زوجتي، ويحاول الإمساك بالسحالي والحشرات التي تُوضع في علبة معدنية مليئة بالكحول، موضوعة على سرجي ثم، مصطفة في مواجهتنا، الجمال السبعة، تتقدم ببطء، مادّة أعناقها الطويلة لتقضم هنا وهناك الأرضي شوكي البري، الذي يكثر في ذلك السهل ويُعدّ طعامهـا المفضل. ونحن أيضاً نجمع بعضاً منه؛ يأكله العرب نيئاً؛ أما مطبوخاً فهو خضار ممتاز. وفي المـؤخرة الجمّالة، جميعهم مسلحون ببنادق طويلة، يحثّون الجمال بالغناء والصياح. يستمر الطريق دوماً عـبر السهل الواسع، الذي يكتسي بطين أحمر حديدي، مناسب للنبات؛ وبالفعل نلمح هنا وهناك حقولاً صغيرة من الشعير والقمح، لكن معظم الأراضي تُترك للرعي. وفي الأفق، الخط الأزرق الطويل لجبل الظاهر، الذي نتجه نحوه.

من الحكمة عموماً للمسافرين الذين يشرعون في رحلة طويلة ألا يقطعوا في اليـوم الأول إلا مسـافة قصيرة؛ فبذلك يتضح عملياً ما إذا كان قد أُعدّ لكل شيء، ويسهل تدارك أي نسيان أو خلل، بإرسال رسول إلى نقطة الانطلاق. وتماشياً مع هذا العرف، اخترنا لمخيمنا الأول "الجوف"، وهو منخفض أرضي يفضي إلى كهف مليء بالماء، اعتُقد أنه نهر "ليتي" عند القدماء. وبعد أن تُهنا بعض الشيء بحثاً عن الموقع، الذي لا تدل عليه أي علامة تُرى من بعيد، تمكنّا من إيجاده، وهبطنا عبر الحافة الصخرية، وتوقفنا في حفرة خضراء، عمقها من خمسة إلى ستة أمتار تحت مستوى السهل المحيط، حيث أُبركت الجمـال، وعند حلول الليل نُصبت الخيام.

وفي صباح اليوم التالي وقعت حادثة تُظهر مدى حكمة الاحتراس الذي دفعنـا للتوقـف على مسـافة قصيرة.

كانت خطة الرحلة، التي اتفقنا عليها مع كامبيريو، أن نتوجه من بنغازي مباشرة إلى ميناء طبرق عبر داخل البلاد، متتبعين وتر القوس الذي ترسمه شبه الجزيرة، وأن نعود عبر درنة وقورينا. وبهذا المعنى

كنا قد أبرمنا العقد مع مفتاح والجمّالة، الذين التزموا بقيادتنا عبر ذلك الطريق. لكن باشا بنغازي، منذ اللقاءات الأولى، كان قد أبدى معارضته لاستكشاف المناطق نحو الحدود المصرية، لكون تلك الأماكن، على حد قوله، موبوءة بقبائل لصوص معادية لا تملك الحكومة العثمانية القوة الكافية لفرض احترام حياة المسافرين وممتلكاتهم فيها؛ فكان قد أعطى تعليمات صارمة للحرس الذي عيّنه لمرافقتنا. وحين علم الجمّالة بالطريق التي كنا ننوي سلوكها، أعلن مصطفى شاووش، بأسلوب مهذب لكن حازم، أنه لا يستطيع مرافقتنا إلى طبرق، بل إلى درنة فقط، وأنه لا يستطيع أيضاً السماح للجمّالة بسلوك الطريق التي اخترناها، دون أمر جديد من الباشا.

جاءتنا هذه الرسالة غير متوقعة ومزعجة، إذ بدا أن كل العقبات قد ذُلّلت؛ فعُقد مجلس، وقُرئ "البويولدك" الذي كان بالفعل يذكر درنة فقط، لكن دون استبعاد أماكن أخرى صراحة؛ وأخيراً تقرر أن يعود مصطفى ومفتاح إلى بنغازي، حاملَين طلباً إلى وكيلنا القنصلي، ليسوّي الأمر.

انطلقا وعادا في المساء برسائل من القبطان بوتيليا ومن نانى روسّوني، اللذين كانا قد ذهبا إلى الباشا وحاولا بكل الوسائل إقناعه بالموافقة على استكشافنا للجزء الشرقي من برقة. لكنه، متذكراً دوماً مصير رولفس السيئ، أجاب أنه لا يمكنه السماح بذلك إلا إذا أعلنتُ كتابياً تحمّلي المسؤولية عن كل ما قد يحدث للقافلة؛ وفي هذه الحالة سيسحب الحرس، وستضطر البعثة إلى المضي على مسؤوليتها الكاملة وعلى خطرها. كما نُقل إلينا أنه أنذر سيدي مفتاح بألا يجرؤ على قيادتنا في الطريق التي رغبنا فيها، وإلا فالويل له ولأقاربه المقيمين في بنغازي. وقد تساءل المؤلف، في حاشية على هذا الموضع، عما إذا كانت هذه الأوامر صادرة أصلاً عن السنوسيين أنفسهم، الحريصين على إبعاد أنظار الغرباء عن طبرق، مستنداً إلى ما أورده دوفيرييه من أن باشا بنغازي كان يعتبر نفسه أولاً خادماً لسيدي محمد المهدي، وموظفاً للحكومة العثمانية في المرتبة الثانية فقط.

في مثل هذه الظروف، أصبحت الرحلة المخطط لها شبه مستحيلة، ولو حاولنا تنفيذها لكان من المرجح جداً أن يلحق بنا المصير الذي أصاب كثيراً من المستكشفين في أفريقيا، دون أي فائدة، بل بضرر لمهمتنا، لأن أي مجزرة كانت ستحفر هوة من الكراهية والريبة بين العرب والإيطاليين. فكان لا بد من الإذعان والاكتفاء بالرحلة إلى درنة، سالكين في الذهاب طريق الجنوب عبر المناطق الداخلية، وفي العودة طريق الشمال، الأقرب إلى البحر.

وفي انتظار ذلك، استفدنا من يوم التوقف الإجباري هذا لاستكشاف الكهف الذي يُفتح خلف خيامنا. يُنزَل إليه عبر ممر شديد الانحدار، وعر بالصخور ومحمي بشجيرات شائكة، توجب علينا أن نشق طريقنا خلالها بالأذرع. صقور وحمائم تحوم فوق جدران الهاوية. أفعى جميلة، طولها متر تقريباً، رمادية فاتحة اللون، مرقطة بالأبيض والأسود، انسلت أمامنا وحاولت الاختباء في شجيرة، لكن ملقط الأستاذ دي سانكتيس الطويل، الذي أجاده أحمدة ببراعة، أمسك بها؛ وعبثاً حاولت أن تعضّ الحديد الذي أطبق عليها وأجبرها على دخول العلبة المليئة بالكحول، رفيقتنا الدائمة في الجولات. يا لها من ضحية مسكينة للعلم! وقد صنّفها الأستاذ كورنالا، مدير المتحف المدني بميلانو، أنها من نوع "زاميـنيس فلورولنتوس"، وهو نوع غير سام لكنه نادر نسبياً ويفتقر إليه في مجموعته التي يرغب في إضافته إليها.

وقد حفّزت هذه الغنيمة عربنا، فراحوا يبحثون في كل مكان، وسرعان ما امتلأت العلبة بالسحالي والخنافس، والوعاء بالأزهار والنبيتات. وهكذا وصلنا دون أن نشعر إلى فوهة الكهف، التي تنفتح في نفس الحجر الرملي الأصفر الذي يشكّل السهل، وتُذكّر، بأبعاد أصغر، بـ"ثقب الرصاص" فوق إربا بالقرب من كومو. أشعلنا المشاعل، وبعد خطوات قليلة فوق أرض موحلة، توقفنا أمام مرآة ماء تملأ الكهف بأكمله. ألقى أحد العرب برنسه وتقدم حتى وصل الماء إلى خصره؛ أضاءت مشعلته القبو، الذي

ينحدر تدريجياً نحو البركة الهادئة، فلم نعد قادرين على تمييز ما وراءها. وقد حاول الأرشيدوق لويجي سلفاتوري من توسكانا، الذي وصف "الجوف" في كتابه الجميل "رحلة بيخت في السرت سنة 1873"، استكشافه بقارب صغير أُحضر من بنغازي، لكنه هو الآخر لم يتمكن من التوغل بعيداً، لأن القبو ينخفض حتى يقترب من مستوى الماء تقريباً. وأخبرنا العرب أن باشا كان قد أبحر لعشر ساعات كاملة في تلك البركة، متوغلاً في الكهف الذي يلتوي كثيراً، فيضيق حيناً ويتسع حيناً آخر مكوّناً قاعات واسعة. ويستحق "الجوف" حقاً استكشافاً دقيقاً، ولن يكون بناء قارب صغير لهذا الغرض نفقة كبيرة؛ أما نحن فاكتفينا بقياس عرض الكهف، وهو ثمانية أمتار، وارتفاع القبو عند بداية الماء، وهو متران، ودرجة حرارة الهواء التي وجدناها 18 درجة رِيومور، بينما هي في الخارج 13 درجة فقط، ودرجة حرارة الماء التي هي 12 درجة. ويشير البارومتر الزئبقي إلى 761، ما يعطي عمقاً قدره 11.10 متراً تحت مستوى البحر، لكن ربما أثّرت العاصفة التي كانت تشتد في الخارج في تلك اللحظة على الجهاز، لأن ملاحظة لاحقة للقبطان بوتيليا أعطت بدلاً من ذلك ارتفاعاً قدره 10.30 متراً فوق مستوى البحر. ماء البحيرة مالح ويُحدث آثاراً شبيهة بمياه مونتيكاتيني.

أكان هذا حقاً نهر "ليتي" عند القدماء، النهر الذي كان الموتى، قبل قبولهم في نعيم الحقول الإليزية، يشربون منه نسيان الذنوب المرتكبة وعذابات الحياة؟ يذكر الكتّاب القدماء عدة أنهار باسم ليتي. أحدها كان يجري في مغارة تروفونيوس ببيوتيا، ومن يستشير الوحي هناك ويشرب منه، يُطرد من ذهنه كل فكرة دنيوية.

وكان آخر في كريت، وفيه غرقت إلى الأبد مصائب قدموس وأسرته؛ وثالث كان يقع في إسبانيا، ورابع في ليتوانيا، ويُقال إن اسمه كان يُرهب الرومان لدرجة أنه لو لم يرفع القائد الراية ويعبر النهر، لتوقف الجيش عند ضفته.

لكن معظم المؤلفين يضعون "ليتي" في أفريقيا، وتحديداً بالقرب من برنيق، بنغازي الحالية. فعلاً، يجعله سترابون يجري في ميناء الحسبريدس، وبليني بالقرب من برنيق، ولوكانوس بالقرب من حدائق الحسبريدس وبحيرة تريتونيدا، رغم أنه يضع هذه الأخيرة قرب السرت الصغرى؛ أما بطليموس فيضعه بين برنيق وأرسينوي (توكرة). ومن المحدثين كان بيتشي أول من اعتقد أنه وجد نهر ليتي في كهف الجوف، رغم أنه لا يوجد فيه نهر بل بحيرة جوفية. ومع ذلك يُحتمل أنه في أزمنة قديمة كان جدول صغير ينحدر من الجبال ويغور في الكهف، الذي كان منظره الكئيب الغامض كفيلاً بإثارة خيال القدماء، الذين كانت الرغبة في نسيان مصائب الحياة وتجديد النفس أمراً شائعاً عندهم.

وفي فترة بعد الظهر، بينما كنت أجول في الهضبة بحثاً عن طائر أصوّب عليه بندقيتي، اكتشفت سوراً طويلاً يحيط بمنخفض أكبر بكثير من الذي كنا مخيّمين فيه. نزلت إليه فوجدت قاعه مزروعاً بستاناً؛ فيه فول وترمس وقمح وكل خير، مسقياً كله من ماء بئرين عميقين. يُدعى هذا المنخفض "السبخة"، وجمعت فيه في صخر جيري أحمر ذي كسر أبيض بعض المتحجرات من نوع "بكتن" جيدة الحفظ.

وفي صباح 22 مارس غادرنا ليتي، وقبل بدء الرحلة نزلنا في بستان آخر، شبيه بالذي رأيناه في اليوم السابق ويُدعى "سبخة مصطفى"، لسقي الخيول عند البئر ذات النظام البربري المحفور هناك.

وبما أن كل هذه الآبار متشابهة، أغتنم الفرصة لوصف واحدة منها. شكلها دائري، قطرها متر ونصف، وعمقها نحو عشرين متراً. فوهتها محاطة بجدار حجري صغير، وبجانبه غرزتا خشبتان قويتان تحملان خشبتين أخريين عرضيتين. وفي الخشبة العلوية معلقة بكرة ثقيلة تدور عليها حبل طويل، يحمل من أحد طرفيه دلواً كبيراً من الجلد، ينزل في البئر. ولرفعه، يُربط في الطرف الآخر من الحبل حمار أو ثور، ويُنزَّل عبر منحدر طويل بجانب البئر. يرتفع الدلو ويصطدم بإحدى الخشبتين العرضيتين فينقلب

ويصب الماء في حوض يُستخدم لسقي الحيوانات ولتغذية سواقي الحقل. عندئذ يعود الحيوان إلى البئر، ينزل الدلو، وتُعاد العملية. يتطلب هذا النظام البدائي عملاً دائباً من حيوان ومساعدة رجل يقوده؛ وهو سبب لهدر كبير في الوقت والجهد، لأن كل طريق الصعود على المنحدر بلا فائدة عملية. أكثر عقلانية بكثير السواقي أو الآبار ذات الدولاب، المستخدمة في مصر والمنطقة النابوليتانية، حيث يدور الحيوان دولاباً مزوداً بأوعية تستقي وتصب الماء؛ لكنها غير معروفة إطلاقاً في برقة.

ولعدم وجود ثور أو حمار للعمل في السبخة، تعلق ثلاثة من الجمّالة بشجاعة بالحبل، وبالجري صعوداً ونزولاً عدة مرات على المنحدر، ملأوا بالماء حوضاً منحوتاً في الصخر، شرب منه خيولنا وحميرنا. وساعدهم العرب الذين يزرعون السبخة، رغم أن نقص ماء البئر يضرهم، إذ لا يُعرف إن كانت الأمطار، التي توشك أن تتوقف في الفصل الذي ندخله، ستعوضه. لكن ضيافة الماء لا تُرفض عن المسافرين؛ وأضاف أولئك الفلاحون الطيبون بضع حزم من الفول الطازج، التي تكون ممتازة حتى دون توابل.

وبعد هذه الحادثة، ننطلق فعلاً في الرحلة، ونواصل، كما في اليوم السابق، عبور السهل الواسع باتجاه الجنوب الشرقي، نحو الجبال.

تزداد خضرة السهل شيئاً فشيئاً، مع تزايد طبقة التربة النباتية؛ هنا وهناك مساحات مزروعة، وفي أماكن أخرى غابات حقيقية من "العُنصُل"، وهو نبات ينمو أيضاً في الريف الروماني، وإن كان بحجم أصغر، ويحمل أزهاراً بيضاء مخططة بالوردي. الأرضي شوكي يوفر دائماً طعاماً وافراً لجمالنا، والقُبّرات الكبيرة، بحجم السّمان، التي تحوم حولنا ويسهل اصطيادها، تعدنا بعشاء شهي. كذلك اشترينا من بعض الرعاة الذين قابلونا، بستين قرشاً (11.40 ليرة)، كبشاً جميلاً لعربنا، الذين يعتبرون أكل حيوان من أول قطيع يصادفونه في الطريق فأل خير.

وعند الغروب نصل إلى سفح الجبال ونضرب المخيم في هَوّة سغاي، وادٍ صغير جميل مكسوّ بالعشب ومنثور بشجيرات الشوك الأبيض. وما إن نزلنا عن ظهور الخيل، وبينما كان الجمّالة ينصبون الخيام، أشار إلينا مفتاح أن نتبعه، وبعد دقائق قليلة وجدنا أنفسنا فجأة على حافة هوة دائرية واسعة تنفتح عند أقدامنا. الجدران والقاع مكسوّان بشجيرات كثيفة من الضرو والخروب ونباتات متسلقة لا تسمح برؤية إن كان في الحفرة ماء. أسراب من الحمام الرمادي تحوم فوق الخضرة، ولا تبدو قلقة كثيراً من قرب الصقور السمراء، التي ترسم فوق الهاوية دوائرها التي لا تنتهي، مطلقة صرخات نذيرة، تذكرنا بأمراء العصور الوسطى الحديديين وسط الفلاحين العزّل. تُعشّش الحمائم قرب الصقور؛ ربما تسلّم بدفع ضريبة من بيضها وصغارها، مقابل الحماية من ابن عرس الأشد قسوة والفئران الشرهة. قصة أزلية عن الظالمين والمظلومين!

نُغرى بإعادة شيء من التوازن الاجتماعي ببنادقنا، لكن ما الفائدة من إهدار الطلقات الثمينة، ما دامت الطيور المُصابة ستسقط في الهاوية، حيث لا يستطيع أحد النزول دون سلّم من حبال، لأن الجدران ليست عمودية فقط بل متراجعة إلى الداخل؟ فلنقس على الأقل عمقها! لحسن الحظ في جيوبنا بكرات من الخيط؛ نربط بها حجراً، وبعد محاولات كثيرة أعاقتها أغصان النباتات البارزة، ننجح في جعله يلامس القاع ثم نقيس طول الخيط، وبحساب الانحرافات، يمكننا أن نقدّر أن عمق الهوة نحو ثلاثين متراً. أما قياس محيطها بالخطى فأسهل، وهو نحو مئة وخمسين متراً.

وفي هذه الأثناء تجذب أنظارنا بعض الأطلال على الجبل المطل، لكننا نؤجل زيارتها لليوم التالي، لأن الغروب يستدعينا إلى الخيام، حيث يجري تضحية الكبش المسكين. يغرز مفتاح سكيناً طويلة في حلقه؛ وفي لحظة يُسلخ ويُقطّع، وتوضع أعضاؤه لا تزال تفور على النار في قِدر العرب الكبير. ولنا يُحتفظ، كلقمة شهية، بالكبد وفخذ صغير.

والجوع الذي نشعر به يجعلنا نفكر، بترابط الأفكار، أنه في مكان بهذا الخلاء لا بد أن تكون الـذئاب موجودة. فلنُخرج إذن المصيدة الحديدية بأنيابها الرهيبة، التي أحضرناها من رومـا! يتحمّس العـرب لفكرة الانتقام من أعداء الأغنام؛ يأخذون أحشاء الكبش المذبوح ويجرّونها على الأرض لتـترك أثـراً، وننطلق نحو شجيرة كبيرة، على بعد ما من المخيم؛ تحتها، على ضوء فانوس، توضع الفخ بكل حرص، ويُجعل الطعم قطعة لحم ثم تُغطى بالأوراق لإخفائها عن الأنظار، وتُربط بسلسـلة متينـة إلى جـذع. راضين عن هذه الاستعدادات، نعود إلى الخيمة ونكرم العشاء ثم نُعِدّ الأسـلحة، لأن الـذئاب رباعيـة وثنائية الأرجل كثيرة، بحسب قول الأدلاء، في هذه الأنحاء.

يمر الليل بهدوء؛ بين الفينة والأخرى يُخيّل إلينا أننا نسمع عواء وحش وقع في الفخ: لكن لا، إنه صراخ البومة أو حشرجة الجمال الرابضة قرب خيمتنا.

أنهض عند الفجر وأركض إلى الشجيرة؛ للأسف! الأوراق لا تزال في مكانها واللحم سليم لا يبقى إلا أخذ الأداة الرهيبة، وبعد أن أُطلقها، أعود بها وسط ضحك العرب. "الذئب ماكر"، سيتكرر علينا سماع هذا القول مراراً، حين حاولنا التجربة عبثاً خلال الرحلة.

لكن حان وقت الصعود إلى الأطلال. تتكون من مستطيل غير منتظم إلى حد ما، أبعاده 45 متراً في الأضلاع الكبرى و56 متراً في الصغرى، مشكّل من حجارة كبيرة مقطوعة بخشونة على شكل متوازي مستطيلات، منصوبة جنباً إلى جنب في صف واحد، في حُفَر محفورة بالأرض. وعند منتصف كل ضلع من المستطيل حجران أقرب وأعلى من الباقي، كأنهما يشيران إلى باب. وعند الزوايا الأربـع سـياج دائري صغير، قطره متران، يبدو وكأنه يشير إلى أساسات برج صغير.

لا يقدم داخل السياج سوى حجارة متناثرة، وبحثنا طويلاً، لكن عبثاً، عن أثر لأي نقش يمكن أن يعطينا فكرة عن زمن إقامة هذه الإنشاءات الخشنة. نلمح في السهل، على بعد نحو كيلومتر، سياجاً مماثلاً آخر مكوّناً من حجارة أقل عدداً لكن أكبر حجماً. وبعد أن نسير محاذاة الجبل باتجاه الشمال للعـودة إلى المخيم، نمر بجانب سياج آخر أصغر ودائري الشكل، وبحفرتين كبيرتين تبدوان محفورتين بيد الإنسان لغرض صهريج. وكهف، ربما كان مقبرة أو مسكناً لسكان الكهوف، ينفتح في جدار صخري على ارتفاع كبير قرب قمة الجبل، لكن ضيق الوقت لم يسمح لنا بتسلقه لزيارته.

لأي غرض استُخدمت هذه الأسيجة؟ هل كانت مقابر، أم تحصينات، أم بقايا مساكن، أم مجرد أماكن لحراسة الماشية؟

وفي تقدم رحلتنا، وجدنا عدداً كبيراً آخر من أسيجة مشابهة، مربعة حيناً ودائرية حيناً آخر، خاصة في سلنطة وزويّة وصفصاف قرب قورينا. وهي غالباً قريبة من صهريج؛ وفي أحيان كثيرة تحـرس مـدخل كهوف، كـانت كمـا يـذكر الكتّـاب اليونـانيون مسـاكن للشـعوب البربريـة الـتي كـانوا يسـمونها "الطروغلوديت" (سكان الكهوف). وهذا يقود إلى الاعتقاد بأن تلك الأسيجة كانت مخصصـة لحمايـة سكان الكهوف وقطعانهم من الزيارات المزعجة للضباع والذئاب وأيضاً من الليبيين الشرهين، الذين ربما كانت لهم في أمور الملكية أفكار لا تختلف كثيراً عن أفكار أحفادهم، البدو. وهذه الفرضية، التي طرحها أيضاً عربنا، تجد سنداً أيضاً في أساسات الأبراج الصغيرة عند الزوايا، التي ربما كانت تستخدم كمراقب. ولعل الفراغات بين الحجارة كانت تُملأ بأغصان الشجيرات الشوكية، الكثيرة في البلاد، كما يُفعل اليوم لحماية "الزرائب" المستخدمة في وسط أفريقيا.

لأي شعب تعود هذه البقايا من العمارة البدائية، التي يُلاحظ فيها للوهلة الأولى تشابه كبير مع كثير من الآثار الميغاليتية الموجودة في شمال أوروبا؟

من بين المؤلفين الذين تناولوا برقة، لم أجد من وصفها؛ فقط رولفس، في طريقه من بنغازي إلى أوجلة، يذكرها عرضاً. وفي مؤتمر البندقية الجغرافي تحدثت عنها مع بعض العلماء المجتمعين هناك. فوجد العالمان الاسكندنافيان توريل وشميدت، في الرسوم التي عرضتها عليهم، تشابهاً شبه تام مع "الكروملخ" في إنجلترا و"رونستينار" في السويد؛ وأخبرني الرحالة الفرنسي الشهير دابادي أن مثل هذه الإنشاءات توجد بكثرة في الجزائر، حيث لا يزال العرب يستخدمونها ليلاً لحراسة الماشية. ويؤكد ذلك أيضاً كتاب فيرغسون عن الآثار الميغاليتية في كل البلدان، الذي يصف ويصوّر كثيراً من الأسيجة المشابهة المكتشفة في الجزء الخاضع لفرنسا من شمال أفريقيا، وبخاصة في ولاية قسنطينة؛ ويناقش فرضية أن الشعوب التي أقامتها قد تكون نفسها التي بنت "الدولمن" و"المنهير" في بريتانيا، وربما جاءت إلى أفريقيا عبر البحر. ودون الذهاب بعيداً، أرى أنه من الأرجح أن تُعزى الأسيجة التي رأيناها إلى القبائل الليبية العديدة التي سكنت برقة قبل الفتح اليوناني، والتي يعطينا هيرودوت أسماءها ويصف لنا طباعها وعاداتها. وحتى في أيامنا هذه، بين شعوب أفريقيا المختلفة، وبخاصة الصوماليون، من المألوف تمييز قبور الأبطال وأماكن المعارك بالحجارة. وقد نُشر مثال على مثل هذه القبور في نشرة هذه الجمعية الجغرافية، اعتماداً على رسوم وأوصاف سباستيانو مارتيني.

وكان سيكون من المفيد إجراء حفريات تحت الحجارة وداخل السياج، للتحقق مما إذا كانت توجد فيه مقابر. لكن نقص الأدوات، التي لم نتمكن من تدبيرها في بنغازي، جعل ذلك مستحيلاً لا يبقى لي إذن إلا أن أوصي بموقع هَوّة سغاي، المهم جداً للدراسات ما قبل التاريخية، لعناية الرحّالة المقبلين.

وبعد أن استنفدنا كل التحريات التي سمحت بها إمكاناتنا المحدودة، ننزل إلى المخيم ونستأنف الرحلة.

نسير أولاً باتجاه الشمال الشرقي محاذاة سلسلة جبال الظاهر، المنثورة بشجيرات شوكية. وبعد عشر دقائق تنفتح عن يميننا واد صغير يعبر السلسلة باتجاه شرقي، وتمر منه طريق طبرق، التي كنا سنسلكها لولا أن الباشا فرض علينا الفيتو. تنهيدة ونمضي، دائماً محاذين المنحدر. وبعد نصف ساعة نصل إلى مدخل وادي فرج، الذي تمر منه الطريق الأقصر إلى درنة. تُدعى المرتفعات وراءه "جبل عصيدة" (جبل العشاء)، ربما نفسها التي يسميها رولفس "جبل باسينا"، اسم نوع من الفطائر على هيئة بودينغ، يستخدمه العرب كثيراً.

والممر، المرسوم بوضوح كافٍ، يتبع قاع الوادي الأخضر المنثور بشجيرات الشوك الأبيض، عابراً مراراً مجرى جدول صغير، تركد فيه برك ماء قليلة، بقايا الأمطار الأخيرة. وتزداد سفوح الجبال تغطية بالغابات الصغيرة، والمشهد يذكّر إلى حد ما بوديان جبال الأبنين العليا؛ التربة طين حديدي متماسك أحمر داكن، يمكن أن يكون خصباً، لكن لا أثر لزراعة أو سكن أو قطعان. هذا العزلة العميقة، التي لا يُحييها سوى تقدّم القافلة البطيء تحت سماء رمادية ملبدة، تمارس على جميعنا تأثيراً من حزن غامض. نتقدم صامتين متلاصقين، أسلحتنا جاهزة لأن الطريق مهيأة للكمائن. وها هو بدوي، ببندقية على كتفه، يجري خلفنا. أهو طليعة اللصوص؟ لكنه يحمل رزمة كبيرة، يلوّح بها ليُظهرها من بعيد؛ أهي رسالة من الباشا تجعلنا نسلك طريقاً آخر ؟لا، إنها رسائلنا وصحف إيطاليا، التي انتظرناها عبثاً خمسة عشر يوماً في بنغازي ووصلت من مالطة مع الباخرة "أليغرا" في اليوم التالي لرحيلنا.

القبطان بوتيليا، بلطف، أرسلها إلينا مع رسول، الذي، مبرراً اسمه، قطع الطريق من بنغازي في أقل من ثماني ساعات ولحق بنا في هذا الوادي المنعزل، بأخبار أحبائنا وأوروبا، التي تبدو لنا الآن بعيدة جداً.

تتوقف القافلة؛ نجلس على العشب، وبقلق محموم نفتح الرزمة، التي يبدو أنها تفوح منها رائحة الوطن. يحيط بنا العرب في دائرة وينظرون إلينا باحترام، باهتمام وتعاطف. وما إن نقرأ الرسالة الأولى: "الجميع بخير في إيطاليا"، حتى يسألون: "أبوك، أمك، إخوتك، كلهم بخير؟" - "كلّه طيب (الجميع بخير)"، نجيب. "الحمد لله"، يهتفون، مسرورين بالحدث غير المتوقع، الذي يستمدون منه فألاً حسناً لبقية الرحلة.

والرسول، بعد أن تناول قسطاً من الراحة، يضع بعناية في جيبه رسالة كُتبت على عجل للقبطان بوتيليا، وينطلق عائداً إلى بنغازي؛ ونحن نستأنف الطريق وسط الأغاني والأحاديث المفعمة بالحيوية.

وكلما ارتقينا في الوادي، يزداد المشهد جمالاً؛ وديان صغيرة لطيفة بحقول قمح تصب في وادي فرج؛ وبعد تجاوز بئر وسياج حجري صغير، نصل بعد ساعتين من المسير إلى "رأس الفرج" على ظهر السلسلة.

تمتد أمامنا هضبة واسعة متموجة، غنية بالعشب ومزركشة بالأزهار؛ هنا وهناك تظهر شجيرات مستديرة من نوع من المريمية ذات أوراق عريضة وأزهار صفراء. إنها نبتة "فلوميس لابياتا"، التي يسميها العرب "الشحرة"، وتكسو جزءاً كبيراً من هضبة برقة وتكاد تكون النبتة المميزة لتلك المنطقة. لها عصارة حلوة المذاق يستخدمها السكان في بعض المربّيات؛ ويستحق الأمر دراسة إن كانت نبتة بهذا الانتشار يمكن أن يكون لها استخدام صناعي. يشير البارومتر الزئبقي إلى 744.5 ملم، والحرارة 18 درجة مئوية، فنستطيع أن نقدر أننا على ارتفاع نحو 200 متر.

وهنا أيضاً عزلة تامة؛ الكائنات الحية الوحيدة نسران أبيضان كبيران (من فصيلة النسر الفرعوني) يرسمان فوق رؤوسنا دوائر واسعة، لكنهما يبقيان بحذر خارج مدى الطلقة. تخلفت الجمال في الصعود، ولا يُستحسن أن نبتعد كثيراً عنها؛ من جهة أخرى، المعدة، التي أثارتها الأجواء الرقيقة، تطالب بحقوقها بإلحاح؛ فنأمر بالتوقف، ونخرج المؤن من الحقائب ونُقيم الغداء على العشب.

العرب، الذين لا يجرؤون على تذوق اللحوم التي يعدّها الكفار، يكتفون بالخبز والتمر ثم يخلدون للنوم. أما سيدي مفتاح فيُخرج من كيس ثوب امرأة من القطن الأزرق، وبمنتهى الجدية يشرع في خياطته وتزيينه بتطريز من الخيط الأحمر والأبيض.

"لمن تعمل، مفتاح، لعله لزوجتك ؟" - لا، الثوب لجاريتي السوداء، الطيبة جداً مع أطفالي." وظل يخيط طوال فترة الراحة، وكلما سرنا بالخطى كان يخيط أيضاً وهو على صهوة الجواد. كان مشهداً غريباً حقاً أن نرى ذلك الرجل القوي، ذا البنية الرياضية، بطبعه الأبيّ الحازم، المسلح حتى الأسنان، يعمل بالإبرة من أجل جاريته. أسطورة هرقل وأومفالي في واقع الحياة الشرقية.

وبعد انتظار طويل، تظهر الجمال ونتحرك. لكن فجأة تنفجر الغيوم الرمادية المزرقة، التي كانت معلقة فوق رؤوسنا، مطراً غزيراً؛ يدوّي الرعد وتحطم ريح عاصفة مظلاتنا. من المستحيل الاحتماء في تلك الهضبة المكشوفة المهجورة لا مفر من أن نتلفف قدر الإمكان بشيلاننا وبأقفطاننا التونسية شبه المقاومة للماء، ونُدير ظهورنا للريح وننتظر مرور العاصفة؛ لحسن الحظ لا تدوم سوى عشر دقائق، تاركة الأزهار مغطاة بقطرات الندى والهواء مشبعاً بعطر لطيف. نستأنف السير، وبعد صعود قصير مريح، نصل إلى مرتفع صغير، فنرى خلف التلال الخضراء باتجاه الجنوب الشرقي الخط الأصفر الباهت للصحراء. هناك الطريق إلى واحات أوجلة وجالو والكفرة، وهناك جغبوب الغامضة، مقر سيدي المهدي، الزعيم الأكبر للسنوسيين.

وبعد تجاوز القمة، ننزل إلى وادٍ واسع أخضر؛ قرب ضريح عربي يُدعى "قِرَة قَبر" نجد في صهريج قليلاً من الماء لذيذ المذاق؛ وقربه تتقافز في العشب أسرة صغيرة من الحمام الرمادي، شبيهة بحمامنا؛ يسقط أحدها تحت رصاصي وسيوفر لنا العشاء. وعلى مسافة قريبة نرى للمرة الأولى الخيام السمراء للبــدو، محاطة بقطعان كثيرة من الأغنام والجمال.

يأتينا مسرعاً فارس عربي أنيق؛ يبحث عن جارية سوداء هربت منه مساء أمس، ربما احتجاجــاً على تفضيل ضرّة عليها. اختبئي أيتها المسكينة، ابنة السودان، ويل لك إن وقعتِ من جديد في يد سيدك!

قمم جديدة، وديان صغيرة جديدة، أسيجة حجرية وآثار صهاريج جديدة؛ تميل الشمس للمغيب ويصــبح الهواء قارساً. ها هو حوض بو مريم الواسع، تُميّزه أطلال قلعة وضريح إسلامي يقومان فــوق تلــة على اليمين. هنا، يقول العرب، سنجد ماء وننصب الخيام.

ماء نعم، لكن من أي نوع! بركة صغيرة، مليئــة بطين موحــل، تعج بمئــات الشــراغيف والخنــافس السابحة، هي ما سيوفر لنا الشراب والمرق والقهوة! ومع ذلك لا خيار؛ حتى مسافة بعيدة لا يوجد بئر، وأصبحت القِرَب والزجاجات جافة. في الوقت المناسب نتذكر مرشحات الفحم التي أحضرناها بنــاءً على نصيحة صديقنا الحكيمة في ميلانو؛ لكن الأكبر، المُشترى من روما رغم كونه من صناعة إنجليزية، يُخرج الماء بنفس الحالة التي استقبله فيها؛ أما الأصغر، المُشترى من مالطة، فله على الأقل فضيلة تغيير لون السائل من بني الشوكولاتة الغامق إلى لون القهوة بالحليب المخفف. فلنقنع بذلك ونغمض أعيننا ونشرب! ولحسن الحظ لم تتكاثر الشراغيف والخنافس في معدتنا ولم نعانِ أي إزعاج من اســتخدام ذلك الماء، الذي كان الأسوأ في كل الرحلة.

تربة حوض بو مريم طين أحمر دسم، يصلح بشكل رائع للزراعة، خاصة أن الرطوبة تبقى فيه حتى أواخر الربيع. ومع ذلك لا أثر لبذار ولا حتى لرعي؛ المكان مهجور تماماً، رغم أن طريقاً مطروقة تشــير إلى تردد كثير عليه.

الليل رطب بارد، وفي الصباح تحوم ضبابات كثيفة فوق قمم التلال. مفتاح، الذي نام في العراء وربما أصابه تخمة من عشائه من الشعير المسلوق بالزيت والفلفل، يشكو صداعاً شديداً لكنه يرفض تنــاول الدواء الذي نعرضه عليه. أما الشاووش مصطفى، بلهجته نصف التركية نصف العربية، فيُفهمنا أنه يريد الذهاب إلى قلعة المرج، حيث يقيم مع رجاله الستة عشر، والتي يقول إنهــا ليســت بعيــدة، ليــتزود بمعطف وبندقية أفضل، واعداً باللحاق بنا خلال يومين لا يعجبنا الاقتراح كثيراً، ولا تريحنا فكرة البقاء بحراسة أبي شرتيلة العجوز وحده، رغم أن سيدي مفتاح يؤكد أن بدو هذه الأنحاء ليسوا لصوصاً وأنه، إذ يعرف كل شيوخهم، يضمن سلامتنا. لكن مصطفى يحتج بأنه بالبندقية التي بحوزته لن يستطيع الدفاع عنا في حال هجوم؛ فلا يبقى لنا إلا أن نأذن له بالذهاب. فينطلق مسروراً باحتضان زوجتــه الشــابة، ويجعل حصانه الرمادي الجميل يرقص عبر المرج.

وهذه الحادثة، ووعكة مفتاح، وبطء الجمّالة في فك الخيام وتحميلها، جعلتنا لا نتمكن من رفع المخيم والتحرك إلا بعد العاشرة.

المشهد لا يختلف عما كان عليه بعد ظهر اليوم السابق: دائماً هضبة متموجة، غنية بالعشب والأزهــار وشجيرات الشحرة؛ على اليسار في البعد قمة جبال الظاهر، الممتدة من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، وعلى اليمين منخفض عميق ثم سهل أخضر واسع؛ وعند الأفق الخط المحمر للصحراء.

نترك عن يميننا صهريجاً دائرياً جافاً، قطره نحو ستة أمتار، وعند وصولنا إلى قمة أعلى، تُدعى "هَضّ السلطان" (عرش السلطان)، نكتشف من بعيد فوق ظهر تلة مرابط لبيار الأبيض. وعكة مفتاح تجبرنا على مراحل قصيرة؛ فنتوقف على هذا المرتفع الجميل لتناول الغداء. وفي المنخفض القريب توجد بعض الخيام، ويقدم لنا البدو حليباً لذيذاً، نعوضهم عنه بقليل من البارود والتبغ، إذ لا يقبلون نقوداً ثمناً للحليب.

نوم ساعتين وهواء بلسمي جاف أعادا لدليلنا الطيب عافيته، فيعطي إشارة الانطلاق. وبعد نصف ساعة من السير نصل إلى مرابط لبيار الجميل ذي القباب الأربع؛ أخرج دفتر الرسم لأخط عليه سكيتشاً، لكن الجمّالة يعترضون خشية أن يعتقد البدو أنه تدنيس؛ فيؤدون بدلاً من ذلك صلاتهم بتقوى للولي المدفون هناك.

وعلى مسافة قريبة في منخفض عشبي، نجد بئراً محفورة في الصخر، عمقها نحو عشرين متراً. يُنزَل فيها الدلو الجلدي الذي لا غنى عنه، ويُصبّ الماء في الحجارة المنحوتة على هيئة أحواض، التي تحيط دائماً بكل بئر أو صهريج؛ تشرب منها خيولنا وحميرنا بنَهَم. تتوافد نساء بدويات لسقي قطعانهن، ويساعدهن عربنا بلطف؛ تتجدد مشاهد يعقوب وربقة. لكن شيئاً فشيئاً يمتلئ المكان بالبدو، ولا يُستحسن أن نطيل التوقف، لأن منظر أمتعتنا قد يثير غرائزهم الجشعة؛ فـ"يلّا" (هيا بنا)، نمر بجانب آبار كثيرة أخرى، تقول الدليل إنها 21 بئراً، ومنها أخذ المكان اسمه: "لبيار"، تحريف لـ"الآبار". الوادي خصب جداً، مزروع هنا وهناك بالقمح والشعير، ومُحيا بتجمّع رعاة الجوار، إذ لا يوجد على مسافة بعيدة ماء بهذه الجودة والوفرة.

نتوغل بعد في وديان صغيرة جميلة وتلال مكسوّة بالشوك الأبيض، حتى نصل إلى حوض النقعة الصغير، حيث ننصب الخيام. المكان ساحر بانسجام خطوطه ورقة ألوانه؛ إنه أجمل مشهد صادفناه حتى الآن. نحن في وادٍ مغلق من الشمال بسلسلة جبال الظاهر، التي بألوانها الداكنة لغاباتها تُحدث تبايناً مع خضرة المروج، حيث ترعى أبقار كثيرة بنية اللون. لكن يُنصَحون بألا نثق كثيراً بالأعشاب الناعمة التي تفرش لنا كالسجاد، لأنها قد تخفي أفاعي، وفعلاً يُمسك بواحدة من نوع غير خطير، تُخنق مقاومتها النشطة سريعاً في وعاء الكحول. وتحت كل حجر نُزيحه لتسوية الأرض، حيث ننصب الخيمة، نجد عقارب وأمّ أربعة وأربعين ضخمة، طولها نحو خمسة عشر سنتيمتراً، نجمعها لمجموعتنا، مستخدمين دائماً الملاقط، إذ يُقال إن لسعاتها سامة.

يحلّ الليل بارداً جداً، وعبثاً نكوّم على أسرّتنا الميدانية الأغطية والثياب، لأن نسيم الشمال الرقيق يتسلل من فتحات الخيمة ويُبقي فيها حرارة سيبيرية. تدعونا أضواء الفجر الوردية الأولى للخروج، وبدهشة نرى العشب والأشجار مكسوّة بالصقيع، وميزان الحرارة رِيومور يشير إلى درجة تحت الصفر، رغم أن الشمس بدأت بالفعل تُدفئ الهواء. ونحن في أفريقيا في الخامس والعشرين من مارس!

وهذا الهواء المنعش المُحيي يُنشّط أيضاً مزاج عربنا؛ نستطيع رفع الخيام ومغادرة الوادي الساحر في الوقت المناسب، ونصعد التلة باتجاه الشمال الشرقي. وبعد دقائق قليلة نصل إلى رأس الحسان، أطلال قلعة سرقسطية، قرب سياج دائري كبير من الحجارة وصهريج.

وبينما نمر بمحاذاة غابة صغيرة، يصرخ أحدهم فجأة: "حَجَل!"؛ ينزل مفتاح عن جواده ويتقدم بحذر مشياً نحو الشجيرات؛ أنزل أنا أيضاً من السرج بسرعة وأتبعه؛ يطير الحجل؛ الدليل، غير المعتاد على الرمي أثناء الطيران، يتردد في تسديد بندقيته نحوه؛ فتصيبه طلقتي فيسقط. جوقة من الهتافات بين العرب الذين يركضون خلفه وينجحون أخيراً في الإمساك به؛ بالكاد أستطيع منعهم من قطع رقبته، ليسيل دمه، حسب شريعة النبي التي تحرّم أكل حيوان لم يُذبح. إنه ذكر جميل، أكبر من حجل بلادنا

وبلون محمر، عيناه الصغيرتان تلمعان وكأنهما تستجديان الرحمة؛ وبينما نتناقش في طريقة نقله حياً، يُميل رأسه ويفارق الحياة؛ اخترقت الرصاصات رئتيه. نغلّفه بعناية لنزع جلده عند التوقف مساءً، قبل تسليمه للطباخ.

وهذه الحادثة، والإمساك بحرباء، كانتا الحادثتين الوحيدتين اللتين أضفتا حيوية على رتابة هذا اليـوم القائظ الثقيل. نعبر سهل وادي الحسن الواسع، محدوداً من الشمال بجبال الظاهر ومن الجنوب بتلال منخفضة؛ لم نعد نرى الشحرة، التي تفضّل الأراضي المتموجة، وتنمو بدلاً منها بكثرة نبتة نسيجية، هي "تيميليا هيرسوتا"، التي يسميها العرب "المتنان"، وجذعها القابل للفتل يمكن أن يحل محـل حبـل شديد المتانة، وفعلاً يستخدمه السكان الأصليون لهذا الغرض. ولو ثبتت صلاحيته لأغــراض صــناعية، لأصبح مادة تجارية، إذ يمكن جمعه بكميات كبيرة جداً في المنطقة الوسطى من برقة.

الطريق دائماً مكشوف ومنبسط؛ والشمس، تعويضاً عن برد الليل، تحرق فوق رؤوسنا وكأنها تسخر منا، ويظهر باتجاه الشمال الشرقي سراب جميل، يرسم بحيرات كبيرة من ماء صافٍ عند أقصى الأفق.

ولنقضي الوقت ونتمرن على العربية، نحاول الحديث مع مفتاح، الذي يمتطي جواده، وبعد أن يــترك اللجام على رقبة فرسته، يستغل استواء الطريق ليواصل بنشاط خياطة ثوب جاريته السوداء.

نتطرق إلى مواضيع مختلفة ونقتنع أنه، رغم عزلة برقة عن العالم المتحضر وبساطة حيــاة ســكانها، فإنهم على علم بما يجري في أوروبا أكثر مما نتصور.

وهكذا، وبيننا نتحدث، نكون قد قطعنا السهل الواسع ووصلنا إلى جدول جاف صغير، يجــري باتجــاه الجنوب الشرقي نحو الصحراء. تبدأ من جديد التلال المتموجة، المكسوة بالشحرة، وبعد ساعة أخرى ننصب الخيام في وادي بو سِمة، شبيه بوادي النقعة لكنه أكثر انفتاحاً على الشمس. وقريباً منه صهريج، عمقه نحو أربعة أمتار، محفور في الصخر، ينزل إليه العرب لاستقاء الماء، وهو بارد جداً وصافٍ، الأفضل منذ غادرنا بنغازي. تجري على جدرانه سحالٍ سوداء كبيرة، تختفي في الشقوق قبــل أن نتمكن من الإمساك بها.

نستمتع بغروب رائع؛ خطوط أرجوانية طويلة تشق السماء عرضياً بلونها الأزرق الباهت، وتُنبئ باقتراب رياح الصحراء. الهواء دافئ معطر بأريج الأزهار، ورغم أننا في ارتفاع أعلى من النقعة لا نعاني من أي برد خلال الليل.

بِنِيّة - هجوم البو شيالوفة

يوم 26 مارس مقدّر أن يكون بالنسبة لنا يوماً حافلاً بالانفعالات الكبرى، لكن لا شيء في الصباح كان يُنبئ بذلك. نغادر باكراً مخيم بو سِمة، وبعد عبور واد صغير، نبدأ صعوداً يزداد وعورة وصخرية شيئاً فشيئاً. وشيئاً فشيئاً يكتسي الجبل بشجيرات خضراء داكنة، تتحول إلى غابات صغيرة ثم إلى غابات حقيقية من أشجار كبيرة. ندخل منطقة النبتة التي يسميها العرب "العرعر"، وهي "جونيبيروس فينيقيا"، التي تشبه في لونها وأوراقها الصغيرة شجرة السرو، لكن بأشكال مستديرة ورائحة زكية جداً. وتنمو أيضاً في إيطاليا، لكن بأحجام أصغر بكثير. يكسو هذا العرعر جزءاً كبيراً من هضبة برقة والوديان المتفرعة منها، ويشكل أحياناً تشابكات لا يمكن اختراقها من جذوع وأغصان جافة لا يهتم البدو بجمعها لوفرتها لديهم للوقود. خشبه ممتاز للاحتراق، وكثيراً ما كان يُبهج مخيماتنا بلهبه الحي العطر.

العرب، أعداء الغابات في كل مكان، يعتبرونها أساساً ملتقى للأرواح وملجأ للصوص، رغم أننا نعتقد من تجربتنا أن هؤلاء الأخيرين يفضّلون لمآربهم الأراضي المفتوحة.

وما إن وصلنا إلى حافة الغابات، حتى لاحظ مفتاح أن الجمال قد تخلفت، إذ إنها بحكم تكوين أقدامها تسير بشكل أفضل على الرمال منها على الصخور، فجعلنا نتوقف مراراً لانتظارها. توقفنا بعض الوقت عند مدخل وادي جردابة، حيث حمتنا أشجار العرعر المعمرة من أشعة الشمس، وأراحت العين المتعبة من تعاقب الهضاب القاحلة والوديان العشبية، بمظهرها المتنوع وأغصانها الملتوية كالثعابين العملاقة. وحين وصلت الجمال، صعدنا معاً لأكثر من ساعتين الوادي المتعرج، الذي يزداد رومانسية وقتامة كلما ازدادت الأشجار كثافة وضخامة. وشهيتنا تزداد أيضاً، ونقترح مراراً على الدليل أن نتوقف، تحت الظل اللطيف، لاستراحة الظهيرة المعتادة. لكن الجمّالة، الذين يظنون أنهم يرون خلف كل جذع بدوياً شاهراً بندقيته، يرجوننا أن نواصل حتى بِنِيّة، المكان الذي يصفونه لنا بأكثر الألوان إغراءً، حيث سيكون، كما يقولون، ماء ممتاز لنا وعشب لركائبنا. على مضض نستسلم لنصيحتهم. وبعد اجتياز الممر، الذي يقع على ارتفاع نحو 700 متر فوق مستوى البحر، ننزل إلى مرج دائري واسع، تحيط به من كل جانب تلال جميلة.

يتوقف العرب عند حافة صهريج كبير، مليء بماء أخضر، يعج بالشراغيف والضفادع والخنافس المائية وحشرات سابحة أخرى. أهذا إذن الماء الذي أُثني عليه كثيراً؟ خاب أملنا في راحة تحت الظل قرب نبع متدفق، لكن مدفوعين بجوع لا يرحم، نستسلم على مضض للجلوس في الشمس واستخراج مؤننا المتواضعة من الحقائب، مرتوين بالماء الذي أحضرناه بحذر معنا من بو سِمة. وفي هذه الأثناء تتنزه الخيول والحمير متغذية في العشب الكثيف الطازج، لدرجة أن غداءها في ذلك اليوم كان بالتأكيد أشهى من غدائنا. وبينما نحن منشغلون بدراسات في فن الطهي المقارن وتأملات في السعادة النسبية للإنسان والحمار، يُلفت انتباهنا فجأة اثنا عشر بدوياً، مسلحين جميعاً، يخرجون من واد صغير ويتجهون بخطى سريعة نحو جمالنا المنتشرة في السهل.

الجمّالة، المجتمعون حول الصهريج، ما إن يرون القادمين الجدد حتى يقفزون واقفين كأنهم دُفعوا بنابض، ويمسكون ببنادقهم، ويركضون نحوهم، صائحين بنا أن ننتبه لخيولنا ونمتطيها في أسرع وقت. وبينما نُعِدّ سروجنا، يلحق بنا الشاووش مصطفى، الذي كان قد جاء ذلك الصباح من المرج، وانتظر القافلة في ظل الغابة القريبة؛ نُحيّي ظهوره بفرح، إذ لم يكن ليأتي في وقت أنسب.

وفي هذه الأثناء التقى البدو برجالنا، متبادلين تحية باردة، دون مظاهر الود المعتادة؛ بل راحوا يفحصون بفضول ملحّ ومزعج أمتعتنا وبخاصة أسلحتنا. أيريدون تقدير عددنا ومدى ما نملكه من طلقات؟

للتخلص من هذا الانزعاج، نمتطي الخيل ونبدأ التوجه نحو الجزء الشرقي من الحوض، حيث يقودنا طريقنا.

وفجأة تأتي عصابة أخرى أكبر عدداً بكل سرعة من الوادي نفسه الذي خرج منه الأولون. وفي لحظة نجد أنفسنا محاطين بخمسين بدوياً تقريباً، بوجوه بين الذئب والنسر، يُشيرون بأيديهم ويصرخون كالمجانين. بعضهم ملتف بعباءات بيضاء واسعة، وآخرون لا يرتدون سوى قميص ممزق ولا يملكون حتى غطاء الرأس الذي لا يستغني عنه أي عربي يحترم نفسه؛ الجميع يحملون على أكتافهم البندقية الطويلة ذات القدّاحة، بحربة صغيرة مثبتة، وفي أحزمتهم مسدسات ضخمة أو خناجر حادة؛ وبعضهم مزوّد أيضاً بعصي غليظة ذات مقبض منحنٍ.

مشجِّعين بهذا المدد، الذي كان بلا شك متوقعاً، يتخلى القادمون الأوائل عن التحفظ الذي التزموا به حتى تلك اللحظة، ويرفعون عن بنادقهم ومسدساتهم أغلفة الجلد التي يحملون فيها دائماً ملفوفة قداحاتهم، ليبقوا البارود جافاً حسب وصية كرومويل، ويُلمّعون تحت الشمس نصال خناجرهم.

وإذ لا نستطيع فهم صراخهم غير المفهوم لا ندري في البداية إن كان الأمر هجوماً أم استعراضاً، يُدعى هنا "فَنتازيا"، الذي يبدو هذا المكان المنبسط الجميل الفسيح مهيأً له تماماً. لكن للأسف نقتنع أن الأمر جدي، حين نرى البدو يتشاجرون بالأيدي مع الجمّالة، ينتزعون من رؤوسهم الطاقيات ويمزقون البرانس، ويأمرونهم بلكمات على الوجه بتسليم الأمتعة فوراً: "دِفَع النصارى"، أي أمتعة النصارى، التي تجرؤوا على جلبها إلى أراضي البو شيالوفة.

عندئذ تنشأ فوضى لا تُوصف؛ الجمّالة، الغاضبون من هذا المطلب الذي يمسّ شرفهم، يقاومون ويحاولون التملص؛ مفتاح، محاطاً بحشد هائج، يحاول عبثاً تهدئتهم بكلمات حكيمة؛ أما مصطفى فينبري، منتصباً على سرجه، يُنزل على أكتاف البو شيالوفة المحيطين به وابلاً من ضربات كرباجه، فيتلقونها، رغم كونهم مسلحين حتى الأسنان، دون أن يردّوا، متعوّدين كما هم على الانحناء تحت سياط الأتراك. وبينما يضرب الشاووش، يصرخ بأعلى صوته أننا قناصل، تحت حماية الباشا، والويل لمن يمسّنا نحن أو أمتعتنا؛ فسيأتي جنود المرج ويجعلونهم يدفعون الثمن غالياً!

أُخرج مسدشي وأحثّ جوادي، لأنجد الجمّالة، لكنهم يتوسلون إليّ بشدة ألا أستخدم السلاح وأن أبتعد جانباً. يقترب مني متعصب شبه عارٍ، يصرّ بأسنانه، ويهتف ضد "النصراني"، ويصوّب حربته نحو صدري. وإذ أعلم أن عرب أفريقيا عموماً أسرع إلى التهديد منهم إلى الفعل لا أرتاع كثيراً وأكتفي بأن أقول له: "همشِ" (اذهب بعيداً). هل بقي مرتبكاً من برودة أعصابي، أم احترم المسدس الذي كنت أحمله جاهزاً؟ المؤكد أنه ابتعد ولم يظهر مجدداً.

عندئذ يسرع مصطفى وعبدالله، يتوسلان إلينا أن نتراجع إلى مكان أبعد مع أحمدة الذي بقي معنا، وأن نضع أسلحتنا جانباً، لأن منظرها يُثير غضب المهاجمين. هؤلاء، من جهتهم لا يهتمون كثيراً بنا بل بالجمال؛ فصلوا اثنين منها عن الباقي، وتسلق بعضهم كالقردة على ظهورها وفتشوا السلال والصناديق، لكن بدل الكنوز المرجوة، لم يجدوا سوى سحالٍ في الكحول وأوعية بصابون زرنيخي.

لكن ها هما بدويان آخران يسرعان بأقصى سرعة على جوادين ناريين؛ يرتديان طاقية حمراء وسرجاً مزخرفاً بغنى؛ إنهما وجيهان من البو شيالوفة، يُقال إن أحدهما شقيق الشيخ، ويتميز بالنمط النبيل والمنتظم للعرق العربي الأصيل. يتوجهان إلينا وبأسلوب وقور ولطيف يكرران: "ما تخافش، ما تخافش "(لا تخافوا)، سنهتم نحن بتحريركم ثم يذهبان إلى المهاجمين، الذين ينظرون إليهما باحترام، يأخذان منهم ويلقيان على ركائبنا بعض الأغطية والسلال التي كان أولئك قد أنزلوها من الجمال؛ وأخيراً، بعد حديث طويل مع مفتاح ومصطفى، اللذين يعرفانهما جيداً، ينجحان في إقناع البدو بأنه من مصلحتهم التوقف عن الاعتداء والانصراف.

عندئذ يهدأ شيئاً فشيئاً الصخب والصراخ؛ يختفي البو شيالوفة، متفرقين في مسارات مختلفة، ويعود الوادي إلى عزلته وهدوئه لا يبقى سوى خمسة أو ستة بدو...

وتقفز بضع عناجيل صغيرة في الخيمة فتكمل الطابع الرعوي للمشهد.

وُتدعى الضيفة للجلوس على الحصير بين الأم والعروس، ويدور الحديث، وإن لم يكن سلسًا جدًا بسبب صعوبة اللهجة، حول حياتهن: حياة بسيطة بدائية قليلة الحاجات، لكنها سعيدة مع ذلك. يتغير مكان مخيمهن بتغير الفصول، لكن دائمًا ضمن دائرة أراضيهن؛ لم ينزلن قط إلى بنغازي، ولا إلى درنة؛ ولم يرين بيتًا قط؛ حياتهن كلها تجري بين الخيمة والقطيع والأولاد.

وبطبيعة الحال لم تأت زوجتي خالية الوفاض؛ فتركت هدية لعروس مفتاح عقدًا من اللؤلؤ الروماني ومرآة، ولبقية النساء بعض الحلي الصغيرة؛ فرحن بالهدايا لكن دون إظهار مبالغ فيه.

وبعد أن أدخل مفتاح ضيفته إلى الحريم الفسيح، جاء ليأخذني أنا أيضًا، وباستدارة واسعة قادني إلى الخيمة الأوسع، اليت تقوم مقام "المضافة" لديه، أي صالة الاستقبال؛ وهنا أيضًا تقوم بعض الوسائد وسجاد من إزمير والحجاز، ربما أحضرت من القاهرة، وجرة كبيرة للماء، مقام الأثاث. عجل صغير مربوط في زاوية؛ والماعز تدخل وتخرج، دون أن تعكر صفو الزيارة اليت جرت وفق المراسم الشرقية المعتادة، لكنها لم تطل، لأني كنت في عجلة من أمري للخروج إلى الهواء الطلق، ولملء رئتي بذلك الهواء النقي المعطر، ولإراحة عيني بمنظر تلك الطبيعة النضرة البهيجة الوارفة.

أما زيارة زوجتي فاستغرقت وقتًا أطول بكثير؛ ولم تغادر الحريم إلا عند حلول الغسق، مشيّعة إلى العتبة من النساء، اللواتي ودّعنها بالعبارات المراسمية الشرقية المعتادة.

وُقّدم إلى خيمتنا صحن كبير من "العصيدة"، انقّض عليه الجمالة بنَهم الذئاب، بينما كانت أرباع كبش جميل، وهو أيضًا هدية من مفتاح، تغلي في القدر، وأبو شرتيلة ينشد أعذب أغاني الغرام؛ إنه مساء احتفال، والهلال يلمع في السماء الصافية تمامًا، وكأنه يريد أن يشارك في الفرح العام.

لكن كل شيء يزول، ويعقب يوم الاحتفال يومٌ من الملل والتعب. تشرق شمس الثاني من أبريل خلف حجاب من ضباب محمّر ينذر بالقبلي؛ مفتاح حزين لأنه سيفارق أبناءه وزوجته... وجاريته؛ أحمدة يشتكي آلامًا، لأنه أفرط في أكل العصيدة حتى التخمة؛ والجمالة يغادرون على مضض بلاد النعيم.

نرحل متأخرين وننزل وادي لمسية حتى ملتقاه بالطريق الرئيسية، اليت يحاذيها مجرى واسع جاف يقولون لنا إنه يصب في وادي درنة. يرافقنا لمسافة بدويّان من قبيلة العبيدات، يمتطيان جملًا واحدًا، ثم يفارقاننا متجهين إلى خيامهما.

وبعد صعود وهبوط متكرّرين عبر تلال متموجة ينمو فيها الدرياس والضرو، ننزل إلى سهل شاسع من طين أصفر لا ينبت فيه سوى الشيح.

وأمامنا، على بعد يزيد على عشرين كيلومترًا، تمتد سلسلة طويلة جدًا من جبال بنية مزرقّة تبدو عارية؛ وفيها انخفاض يشبه أثر فأس، يرسم مسار الوادي الكبير المتجه إلى درنة. يتجه هذا الوادي شمالًا شرقًا، لكن الشيخ مينا، الذي يقود القافلة الآن، يجعلنا نميل جنوبًا، تجنبًا للأودية والصخور اليت جعلت النزول عسيرًا جدًا على كامبرييو.

يزداد المشهد قحطًا وكآبة؛ ولإنعاش الروح أخرج من جيبي "القبطان فراكاسو"، اليت أحضرها لي ساعي بريد بنغازي، وأشرع في البحث عن أطرف النكات المتداولة في السهرات المرحة. لكن جوادي يتبيّن أنه عدوّ للأدب الدوري؛ فما إن أفتح الصحيفة حتى ينتصب ويندفع عدوًا جامحًا، فتذهب الصحيفة أشلاءً؛ ولم أستطع جمع أوراقها وقراءة بعض سطورها إلا بحذر شديد. واحتفظتُ بهذه التجربة في ذهني، فكلما تعب الجواد العطشان وأرخى رأسه وأبطأ خطاه، أخرجتُ جريدة وانطلقنا هرولة!

وفي هذه الأثناء، ورغم أن الشمس محجوبة بحجاب أبيض خفيف، فإنها ترسل قيظًا ثقيلًا؛ نبحث طويلًا قبل أن نعثر على ضرو ضئيل، نستريح تحته لحظة، لكن الجمالة لا يمهلوننا؛ فهم يستعجلون الوصول إلى درنة، لأن المؤن بدأت تنفد. ففي أيام الوفرة الأولى، وربما لتخفيف حمل الجمال، أسرفوا في صرف الشعير للركائب، وكذلك البقسماط الذي كنا قد اشتريناه لأنفسنا، ولم يتنبّه مفتاح ومينا، المكلّفان بإدارة المؤن، لهذا الإسراف. إن قلة التبصر والالتفات هما العيبان الأساسيان في الطبع العربي، وهما ما يحولان دون أن يحقق هذا الشعب ما يؤهله له ذكاؤه من تقدّم.

وتظل المنطقة مقفرة؛ ال خيمة، ال قطيع، ال بدوي؛ أرنب برّي وحيد يبعث بعض الحياة في المشهد للحظة، لكنه يعدو بعيدًا جدًا بحيث يستحيل على خيولنا المرهقة أن تدركه؛ ويبدو لنا أصغر قليلًا من أرنبنا وأطول أذنين.

نترك عن يسارنا قلعة بو حسن السرقسطية الكبيرة، وهي من النقاط المحددة على الخرائط، ويمكن أن تُستخدم للاهتداء، وبعد أن نعبر مجرى الوادي مرارًا، ننصب المخيم عند المعصر، قرب بعض التلال المكسوّة بشجيرات شوكية، ستكون عشاء الجمال. أما الخيول والحمير فحظّها أسوأ؛ لا تجد سوى عشب قليل يابس، وال ماء.

وفي صباح الثالث من أبريل، وبعد مشاورة طويلة، يخبرني مفتاح والحارسان أنه لا بد من سقي الخيول على الأقل، وإلا استحال عليها متابعة الرحلة، ويقترحون عليّ أن أرافقهم مع جوادي إلى وادي درنة القريب، حيث توجد بئر. يؤسفني أن أترك القافلة تسير وحدها بلا حراسة، وألاحظ أن الحمير أيضًا بحاجة إلى الشرب؛ فيجيبونني بأن تلك المنطقة آمنة تمامًا، إذ لا يوجد فيها بدو، ال طيبون ولا أشرار، وأن الطريق طويل وعر جدًا على الحمير، وأننا سنسقيها من الماء الذي سنحمله في القرب لا بد أن أذعن على مضض لهذه الحجج؛ ومن جهة أخرى يهمني أن أرى منابع وادي درنة، اليت ربما لم يزرها رحّالة من قبل؛ وأجد متعة في استبدال خطى القافلة البطيئة بمسير أكثر حيوية.

وبالفعل يتبيّن جوادي الحصيف، الذي يكون أكسل من الحمير حين يسير معها، أنه، إذ يرى نفسه بصحبة ثلاثة خيول، يهرول بشكل رائع.

نأخذ اتجاه الشمال الشرقي، وسرعان ما نجد أنفسنا على حافة وادٍ هائل، يظهر في قاعه مجرى جاف. هذا هو الوادي الذي، بعد أن ينبع من الأودية اليت عبرناها، يتجه شمالاً عبر الشق الجبلي الذي لاحظناه أمس، وينزل فوق درنة اليت يرويها بينبوعين غزيرين، لكنه في موسم الأمطار يهددها أيضًا بفيضاناته. النزول في هذا الوادي ليس سهلاً، لأن جدرانه شبه عمودية؛ وعبثًا يدور بنا أبو شرتيلة طويلاً فوق الحافات بحثًا عن منحدر يمكن سلوكه، مدّعيًا معرفة المكان لكونه من درنة؛ وبعد محاولات كثيرة يوفِّق مفتاح في إيجاد أثر ممر، ننزل منه فعلًا، عابرين صفائح كلسية واسعة أملس لا بد من النزول عن الجواد، واستحضار خبرة متسلق الجبال، لأن المشي يبدو وكأنه على نهر جليدي، وال بد من مسك الخيول جيدًا باللجام كي لا تتدحرج على المنحدر الشديد. ولحسن الحظ يمر كل شيء على ما يرام، وبعد نصف ساعة نكون في قاع الوادي؛ نمتطي الخيول من جديد، وهي، وكأنها تشمّ قرب الماء، تهرول بحماس عبر السهل المكسوّ بالعشب، حيث ينتصب هنا وهناك حور يابس.

وبعد أن نصعد الوادي نصف ساعة، ننعطف في واد صغير ينزل يسارًا، وسرعان ما يتحول إلى وعر بري مليء بصخور ضخمة، تنمو بينها أشجار سرو معقدة ملتوية، يشكّل لونها القاتم تباينًا جميلًا مع بياض الجدران الوعرة. وبعد قطع مسافة على ممر مرسوم جيدًا، يكشف عن عبور متكرر، نسمع نقيق ضفادع من بركة صغيرة خضراء في قاع الهاوية. لكن هذا ليس الماء الذي بذل جوادانا المسكينان في سبيله كل هذا الجهد؛ فعند سفح الجدار تنفتح حفرة؛ يلقي مفتاح عنه البرنس والقميص ويظهر عاريًا بقوامه الرياضي، ثم ينزل إلى البئر الضحلة، ويأخذ القرب اليت حملناها معنا، ويخرجها ملأى، مسلِّمًا إياها للحارسين، اللذين يسارعان إلى سكب الماء في الحوض الحجري، الموضوع هنا أيضًا لاستخدام السكان القلائل في تلك المناطق. تتكرر العملية مرارًا وتكرارًا؛ والخيول، صبورة كصبر العرب، تنتظر دورها بهدوء، ثم تروي حلقها المحترق بنَهم؛ ونذوق نحن أيضًا من ذلك الماء المفيد البارد جدًا، وإن كان مالحًا قليلاً.

من حولنا كل شيء وحشة وصمت؛ ولا يجول في السماء، اليت لا يُرى منها سوى شريط أزرق بين الصخور المهيبة، سوى نسر واحد. أصوّب إليه بندقيتي، لكن العرب يرجونني ألا أطلق النار، لأن الصوت سيجذب البدو، الذين قد يسلبوننا ويذبحوننا في ذلك الوادي المنعزل، دون أن يصل خبر مصيرنا إلى أحد أبدًا. نمتطي الخيول، اليت، وقد ارتوت، تهرول بنشاط جديد، ونعود مسرعين إلى الوادي الرئيسي الذي يضيق شمالاً وينزل بين هاوٍ مرعبة نحو درنة. نأخذ يمينًا ممرًا ينحدر صعودًا بين الضرو والخروب؛ وسرعان ما نبلغ المرتفع، ونعبر الهضبة هرولة، متجهين نحو غابة داكنة يلوح لنا فيها بعض الحركة.

إنها شجرة كبيرة، وتحتها نرى قافلتنا مجتمعة.

وبعد أن يهدأ فرح اللقاء الأول، نتبادل حكاية مغامراتنا؛ أما مغامرات القافلة فتقتصر على قُبّرة كانت فضولية جدًا حتى اقتربت كثيرًا فسمحت لأحد الجمالة بقتلها بعصا. نذرف دمعة على مصير الطائر المسكين، الذي أساءت الحياة مكافأة ثقته، ونضعه في المخلاة للعشاء.

الشجرة اليت توقفت القافلة تحتها زيتونة برية، أول ما نراه في برقة. إنها شوكية، وأوراقها صغيرة وأدكن من زيتوننا؛ والثمار لم تنضج بعد، لكن العرب لا يستفيدون منها ويتركونها طعامًا للماعز.

نترك الظل المضياف، ونواصل باتجاه الشمال؛ ومن مرتفع خفيف نرى في الأفق الخط الأزرق للبحر المتوسط، وعند أقدامنا سهل واسع يلمع فيه بياض مرابط سيدي عزيز، مبنى صغير مربع بست مداخن، حيث نخيم في موضع يُدعى فطيّة. وبعد ليلة أقلقنا فيها القبلي الشديد، نرحل باكرًا، وبعد اجتياز أطلال رأس اللبن، الذي كان يومًا ملجأ للصوص المخيفين، نصل أخيرًا إلى حافة الهضبة، حيث ينكشف امتداد واسع من البحر، وتحتنا على عمق كبير مدينة درنة، اليت، محاطة بسهل أصفر، تتلألأ بياضًا وسط حزام بساتينها، كأنها ماسة مرصّعة بني الزمرد على أرضية من ذهب.

لكن ما زال أمامنا طريق طويل قبل الوصول؛ فنزول العقبة شديد الانحدار؛ والجمال والركائب لا تدري كيف تضع أقدامها على الصفائح الكلسية الأملس. يحدث سقوط كثير قبل بلوغ السفح، ونمشي بعدها نحو ساعة كاملة في سهل حجري مزروع هنا وهناك بالدرياس، على مقربة من البحر.

ونتقدم أمام الجمال، فنلامس أولى بيوت ضاحية بومنصور؛ نمر بجانب المقبرة العربية، المزيّنة بأشجار صبّار كبيرة مزهرة، والمزدانة بقُبّتين، ثم نعبر مجرى وادي درنة الجاف، وندخل أزقة المدينة الضيقة اليت توصلنا إلى الساحة الكبيرة، حيث تنتصب القلعة ذات الأبراج، مقر القائمقام والحامية.

نتوقف في ظل صفصافة معمِّرة، قرب مقهى، ونرسل أحد الحرس ليطلب الضيافة من الأشخاص الذين نحمل توصيات لهم، إذ إن نظام الفنادق لم يصل بعد إلى درنة بطبيعة الحال. لكنهم كانوا قد عرفوا فعلًا، من صوت الناس الذي ينتشر في الشرق بسرعة عجيبة، أن الإيطاليين أصدقاء كامبريو قد وصلوا. فيظهر فورًا الأوروبيون الوحيدون المقيمون في درنة، أعني السيد جوزيبي دو فريمو، التاجر المالطي، والسيدين فرانشيسكو ونيقولا بيتروفيتش، الدلماسيّين وشقيقَي الوكيل النمساوي المجري في بنغازي. يستقبلوننا جميعًا بحرارة بالغة، ويستضيفنا السيد دو فريمو في بيته الأنيق المريح، حيث تكرمنا زوجته الفاضلة بمنتهى اللطف.

ولا يلبث جمالنا أن يصلوا، فيُفرِّغون ويُرسَلون للرعي تحت حراسة راعٍ. أما العرب والخيول والحمير فيُسكَنون في بيت مجاور يضم فناءً وبئرًا وعدة غرف وإسطبلات، ندفع إيجارها تالرًا واحدًا في اليوم.

من بين المدن الشرقية الكثيرة اليت رأيناها في تجوالنا، تُعد درنة بالتأكيد من أكثرها جاذبية. فيها بازار مسقوف بديع المنظر وجيد التموين، وجامع كبير تعلوه قباب معدنية تلمع في الشمس، وشوارع نظيفة نسبيًا، تنكشف في نهايتها من كل جهة خضرة البساتين اليت تحيط بالمدينة من كل جانب.

كان عدد سكان درنة يُقدِّر عمومًا حتى الآن بستة آلاف نسمة، لكن بالنظر إلى اتساع المدينة والحشد الذي يجول فيها في ساعات الصباح، بدا لي هذا الرقم أقل من الواقع. وبالفعل فإن الدكتور مامولي، مندوب جمعية الاستكشاف التجاري، المقيم الآن في درنة، ذكر في أحد تقاريره الأخيرة أن عددهم 7800 نسمة، ويبدو لي أن ذلك المراقب الدقيق دائمًا أصاب هذه المرة أيضًا. ويعتقد أن نحو 150 من المواطنين يهود، و60 من أهل كريت، معظمهم أصحاب دكاكين ومسلمون، والباقي عرب. يُعتقد عمومًا أن هؤلاء متعصبون جدًا، لكننا وجدناهم طيبين ومهذبين للغاية، ولفت انتباهنا بخاصة الاحترام والود اللذان يعاملون بهما السيدين دو فريمو وبيتروفيتش، اللذين عرفا كيف يكسبان ثقتهم.

لم يكن عدد الأوروبيين وقت مرورنا سوى خمسة، أي أفراد الأسرتين المذكورتين، انضم إليهم الآن المندوب مامولي وطفل صغير من أسرة بيتروفيتش، اضطرت أمه الطيبة اللطيفة إلى وضعه في الدنيا دون عون قابلة أو طبيب، ودون بركة كاهن، وهي مهن لا تزال غائبة عن درنة حتى الآن.

بقينا في درنة خمسة أيام، ارتحنا خلالها من متاعب الرحلة، وقمنا، بصحبة أصدقائنا الجدد الممتعة، بنزهات جميلة إلى المنارة الجديدة اليت بنتها الشركة الفرنسية، وإلى القلعة السرقسطية المتهدمة اليت تشرف على المدينة وتتيح منظرًا ساحرًا، وإلى وادي درنة المزهر بالدفلى والمحاط بالنخيل النابت بين الصخور كما في غابات المناطق الاستوائية، وإلى جزيرة مستملكة، وهي صخرة تبعد عن البر نحو رميتَي بندقية، حيث يُرى حوضان صغيران محفوران في الصخر، من الواضح أنهما استُخدما للاستحمام، ويتصلان بالبحر الخارجي عبر قنوات.

ميناء درنة خليج جميل جدًا، يمكن بأعمال قليلة أن يُجعل آمنًا. وقت مرورنا لم تكن فيه سفينة واحدة، لكن المرسى يرتاده مراكب شراعية من كريت، تربط بتلك الجزيرة تجارة تبادل نشطة إلى حد ما.

وقمنا برحلة أطول إلى "الكنيسة"، وهي جدار من الصخور يعلو فوق البحر، على بعد ساعة ونصف شرق درنة، حُفرت فيه أو هُذِّبت بيد الإنسان عدة غرف، يُصعد إليها بممر بالغ الصعوبة بل الخطورة، مقطوع في الصخر وجزء منه على شكل درجات. هذه الغرف غير منتظمة الشكل ومختلفة الأحجام؛ يعتقد العرب أنها من عمل النصارى، ومن هنا جاءها اسمها الذي يعني "كنيسة". ويبدو فعلًا أنها كانت ملجأً لأناس مطاردين، استطاعوا هناك أن يجمعوا مؤنهم، ويعيشوا في نسيان عن العالم. وفي حال المفاجأة، كان يكفي عدد قليل من اللاجئين لصد كثير من المهاجمين، لأن هؤلاء لا يستطيعون التقدم إلا واحدًا واحدًا عبر الممر الضيق.

وفي جوار درنة، وبخاصة في صخرة القلعة، وجدنا بعض الحلقات الصوانية اليت تبدو بقايا جذوع متحجرة ما زالت منتصبة.

كنا نقضي بعد الظهر عادة بمرح في بساتين الضواحي الجميلة جدًا، حيث ينمو بازدهار النخيل والموز والبرتقال والمشمش وكل أنواع الأشجار المثمرة والخضار، مسقيّة بمياه غزيرة من النبعين الناشئين في الوادي.

لكن حان وقت مغادرة درنة ونعيمها، خاصة أن القبلي يهب دون انقطاع، ويُحدث في البيوت حرًّا خانقًا يجعلنا نتوق إلى هواء الخيمة الطلق. أما عربنا فليسوا على هذا الرأي؛ فقد وجدوا في المدينة أقارب وأصدقاء، يجولون معهم طوال اليوم بين المقاهي، يثرثرون بل ويعقدون بعض الصفقات الصغيرة. وقد تأنقوا جميعًا؛ اشتروا طواقٍ وأحذية جديدة، بل بعضهم عباءات يتباهون بها؛ اغتسلوا وحلقوا لحاهم؛ أما أحمدة، الذي له أب في درنة، فلم يفعل شيئًا سوى الاحتفال وعّب المسكرات، حتى كاد يفقد رشده.

فال عجب إذن أن يلتمسوا كل الأعذار لإطالة إقامتنا، وأن الجمال المتوقَّعة صباح آخر يوم لم تصل إلا في وقت متأخر جدًا. وأراد العرب عندئذ أن يؤجلوا الرحيل إلى "بكرة" المعتادة، لكننا أصررنا على الرحيل، منعًا لمزيد من الإسراف ومطالب بسلف على الأجرة.

الفصل السابع

السبيل. عين مارة. غيغاب. قورينا

عند الساعة السادسة مساء العاشر من أبريل، تكون القافلة جاهزة للسير؛ ويرافقنا مضيفونا وحشد كبير من أهل البلدة مسافة طويلة، متمنّين لنا رحلة سعيدة؛ وبعد وداع حميم منهم، نسير مسافة أخرى محاذين الجبل غرب درنة؛ وما دمنا في الأرض المروية فكل شيء نضر أخضر، لكن الشاطئ يصبح بعدئذ صخريًا مقفرًا. وعند حلول الليل ننصب المخيم عند السبيل، قرب بئر.

في درنة كنت قد سعيت لإقامة علاقة طيبة مع القائمقام، ولإفهامه الغرض الحقيقي لرحلتنا السلمية تمامًا، ولإزالة أي فكرة شك لديه قدر الإمكان. وإذ كان من مواليد حلب، استطعنا أن نتفاهم بالعربية، دون حاجة إلى مترجم؛ ووجدته دائمًا بالغ اللطف، يغدق تأكيدات الصداقة، مستعدًا لمساعدتي في أي رغبة. لكن حين تطرقت إلى زيارة بومبة وطبرق، سواء عبر الطريق البري أو البحري، كان لا يتزحزح في رفضه المطلق. وهو لم يكن يرى في ذلك خطرًا جسيمًا حقيقيًا، لكن بما أن مسؤولية سلامتنا تقع على عاتقه، أعلن أنه لا يستطيع أن يسمح لنا بالذهاب إلى هناك دون إذن باشا بنغازي، الذي ربما كان قد أصدر تعليمات مباشرة بمنع ذلك. وروى أيضًا قصة، لا أدري إن كانت صحيحة، عن عقيد في الجيش التركي قتلته تلك القبائل قبل أسابيع قليلة.

وفي المقابل لم يكن صعبًا علينا أن نعود بطريق مختلفة عن طريق الذهاب، محاذين أولًا البحر، غرب درنة، ثم صاعدين الهضبة عبر طريق العقبة الوعرة.

بل استطعت عبر هذا الطريق، وبانحراف قصير، أن أزور، ولو مرورًا سريعًا للأسف، وادي عين مارة الخصيب جدًا، الذي كان كامبرييو قد حدثنا عنه، والذي كنا نعلم أن السنوسيين يحرسونه بعناية غيورة، إذ لهم فيه زاوية (دير)، ويحاولون منع الغرباء من الوصول إليه. هذه الجولة، التي تمت باتفاق مع الحارسين لكن دون موافقة الدليل، وبسرعة كافية لعدم إثارة الشك، لم تترتب عليها عواقب وخيمة، لكنها كانت دليلًا آخر على العقبات التي تضعها ريبة السكان الأصليين أمام استكشاف الداخل.

وادي عين مارة من أجمل الأودية؛ رأينا فيه أشجار جوز كبيرة، لم أجدها في أي مكان آخر من برقة، ورأس نبع يتفجر منه جدول يروي الوادي وينحدر باتجاه الشمال الشرقي نحو درنة. الزاوية، التي لم نستطع رؤيتها إلا من بعيد، تظللها مجموعة أشجار تبدو لنا أيضًا جوزًا، ويقول مصطفى إن فيها نبعًا أكبر بكثير من الذي نستريح عنده. لم نلتقِ في الوادي سوى بدويّين، نظرا إلينا بدهشة؛ فقال الحارسان إنني "الكمركجي الجديد"، رئيس الجمارك الجديد، ذاهب من درنة إلى بنغازي؛ فحيّيانا بلطف، لكننا رأينا من الحكمة أن نبتعد في أسرع وقت، خشية أن نرى في أي لحظة المرتفعات تتوّج بأناس معادين.

لم نرَ بدلًا من ذلك سوى ذئب هرب واختبأ بين الصخور، وغادرنا مسرعين الوادي الجميل لكن غير المضياف. إن الغيرة التي يخفي بها السنوسيون هذا الوادي عن الأعين الغريبة ربما تكون تقليدًا قديمًا جدًا، وليس مستبعدًا أن تكون عين مارة هي "إيراسا" نفسها، التي روى هيرودوت أن الليبيين قادوا إليها اليونانيين ليلًا، لئلا يدركوا جمال المكان.

وبعد أن نجونا من الخطر، نهرول طويلًا بين وديان وتلال، عليها آثار طرق قديمة، شبيهة بتلك التي رأيناها قرب سلونطة؛ نعبر مستنقعًا صغيرًا، وقرب نبع عين مقدّح الجميل، نلحق برفاقنا الذين كانوا ينتظروننا بقلق شديد.

عندئذ يفرغ مفتاح والجمالة عن قلقهم، معاتبين الحارسين على أنهما قاداني إلى عين مارة؛ فويل لنا إن علم البدو أن نصرانيًا زار تلك الأماكن؛ إنهم قادرون على مهاجمة القافلة ولو ليلًا! يحتد الجدال ويصل إلى الأيدي، لكن تدخلنا يعيد الهدوء؛ والبدو الذين نلتقيهم لا يبدون أي عداء، وبعد مسير قصير نخيم، دون حوادث أخرى، عند بيت التمر، "بيت التمر"، حيث لا نجد مع ذلك أي نخلة، بل أطلال واسعة لقلعة رومانية.

نرحل عنها باكرًا، في يوم غائم ممطر، وبعد ساعتين من السير في هضبة متموجة، نصل إلى قوبة، حيث تنتصب أطلال معبد، مقام أمام صخرة يتفجر منها نبع غزير. وربما كان هذا أحد الينابيع المقدسة للبنتابوليس القديمة؛ وطراز أعمدته الست الغليظة الثقيلة يذكّرنا بطراز معبد دندرة في مصر العليا، لولا أنها موصولة بعقود صغيرة. ولا نجد هنا أيضًا أي نقش. نلتقي فرقة من البدو، بينهم زنجي يحيينا بالإيطالية، ويروي لنا أنه كان بحّارًا في نابولي وأنه يحب بلادنا كثيرًا؛ نكافئ وده بعلبة

تبغ. وبعد ساعتين أخريين، يظهر وسط غابة كثيفة من العرعر، قصر نسّوة، حصن روماني أفضل حفظًا من غيره، لا يزال يبدي بوابة قوس جميلة.

نواصل السفر ساعات عدة عبر ممرات متعرجة، بين وديان خضراء تنبض بالحياة بفعل الخيام والقطعان، تتخللها غابات عرعر وبساتين زيتون وقتلب ورند وبلوط. وعند المساء نصل إلى قلعة غيغاب، ذات المظهر القروسطي رغم أنها لم تتجاوز الثلاثين عامًا بعد، إذ كانت لا تزال قيد البناء حين مرّ بها هاملتون. تبدو مهيبة من مسافة معينة؛ وموقعها المرتفع يضفي عليها جلالًا أشد، وتغطي جانبًا منها بشكل بديع مجموعة رائعة من الصفصاف الكبير، لكنها من قرب مجرد مربع فقير تفوح منه الوحشة والخراب. يقيم فيها حاليًا 42 جنديًا تركيًا؛ وآخرون يزيدون على الأربعين يجولون لجباية الميري (الضريبة الحكومية)، ويقيم فيها أيضًا القائد إبراهيم آغا وأمه، امرأة تجاوزت الستين. فليتخيل القارئ تلك السيدة المسكينة، المنفية في قلعة نائية منذ أكثر من سبع سنوات، هي مدة حامية ابنها، لمجرد رغبتها في ألا تفارقه، وهي المولودة في الآستانة، المعتادة على البوسفور والقرن الذهبي!

استُقبلنا بضيافة حارة من القائد، الذي كنا نحمل له رسالة من القائمقام بدرنة؛ ويساعد الجنود في نصب الخيام، التي نُصبت هذه المرة أفضل من المعتاد، بل كان لدينا حارس شرف عند المدخل!

وما إن استقرت خيمتنا حتى طلب إبراهيم آغا الإذن بأن يقدّم لنا أمه؛ ويسعدنا بطبيعة الحال هذا الدليل على الود، النادر عند تركي. تأتي السيدة، ملتفّة تمامًا بعباءة واسعة، لكن وجهها مكشوف، ونحاول قدر الإمكان أن نكرمها في بيتنا المتنقل. لكن يا لعناء الحديث! فهي لا تعرف سوى التركية، وابنها يتلعثم بقليل من العربية؛ ولحسن الحظ يحضر مصطفى، الذي نتفاهم معه بشكل معقول ويتولى الترجمة، يعينه أحيانًا أحمدة الذي يحضر لنا القهوة. ونقضي هكذا نحو ساعة، ظلّت ذكراها من أعز ذكريات رحلتنا.

وفي الصباح التالي زرت مع رفيقي القلعة، حيث استُقبلنا بتحية السلاح من الجنود الطيبين، الذين أرونا المضجع، وهو قاعة طويلة بمصاطب حجرية، والمدافع القديمة الصدئة على الأسوار، والبنادق الجديدة "هنري مارتيني" على الرفوف؛ ثم رددت الزيارة مع زوجتي لإبراهيم آغا وأمه. وإذ كنت أعرف عادات المسلمين، ترددت في دخول المسكن، لكن السيدة الطيبة جاءت بنفسها إلى العتبة تدعوني، وأحضرت لنا حليبًا ساخنًا، بدلًا من القهوة التي نفدت لديها، إذ إن المواصلات مع درنة صعبة ونادرة. فعوّضناها من مؤننا، وسعدنا بأن نترك لها جزءًا صغيرًا منها.

وقبل مغادرتنا درنة، كان سيدي مفتاح قد أخبرنا أنه لا يرى من الحكمة أن يرافقنا إلى عين شحات (قورينا القديمة)، لأنه قبل سنوات قليلة، في مشاجرة، جرح بدويًا من قبيلة الحسا المقيمة هناك، فلو ظهر في تلك الأنحاء لعرّض حياته للخطر عبثًا، بل عرّض أيضًا سلامة القافلة كلها. وفي غيغاب أعلن لنا أنه لا يستطيع مواصلة السير أكثر من ذلك، وأن حضوره لم يعد ضروريًا على أي حال، ما دمنا سنحظى بحراسة من جنود القلعة.

فنشأ عندئذ نقاش حول الطريق الواجب اتباعه لاحقًا. كان مفتاح يصر على أن نعود من عين شحات إلى غيغاب، حيث سينتظرنا لنعيد سلوك طريق سلونطة وماراوا. ونحن، إذ نأنف من العودة على أعقابنا، أردنا بدلًا من ذلك أن نسلك الطريق الشمالية الأقصر، من قورينا إلى قلعة المرج. ويؤيدنا مصطفى وإبراهيم آغا، ويؤكدان أن الطريق الذي نفضله ليس خطيرًا. عندئذ يأخذ مفتاح حجرًا مسطحًا، ويرسم عليه بطرف حصاة خطًا؛ ثم يضع نقاطًا يمينًا ويسارًا ويقول: "هذا هو الطريق الذي تريدون سلوكه؛ من هنا مرابط كبير، ثم الزاوية البيضاء، ومن هناك بدو الحسا، كلهم لصوص: كالذئب؛ لن تعبروا أحياء من تلك الجهة." ويؤيده الجمالة جوقةً واحدة.

وبعد جدال طويل، يُتوصّل إلى تسوية: لن نمر لا بماراوا ولا بالزاوية البيضاء، بل بالطريق الوسطى عبر تكنس، التي يدلنا مفتاح فيها على الأماكن التي يمكننا أن نخيم فيها، وحيث سيأتي هو للحاق بنا.

وبعد أن استقر كل شيء، نرفع الخيام ونعود إلى الطريق. رسالة القائمقام بدرنة إلى إبراهيم آغا لم تكن تطلب منه سوى أن يعطينا بعض الجنود حراسة إلى قورينا. لكن، بما أنه كان قد رافق قبل أيام قليلة الأميرالاي كامبريو بنفسه، فلم يرد أن يكون أقل كرمًا معنا؛ فاختار عشرة جنود، مدجّجين بالسلاح وفي أهبة كاملة، وحمّل جملًا بمؤنهم، ووضع نفسه على رأس الفرقة، ممتطيًا فرسًا جميلة، كان لا بد مع ذلك من إبعاد جوادي الجامح عنها بكل حرص. وقد جعلت صحبة القائد وفرقته ذات المظهر العسكري الرحلة أمتع، وأكثر أمنًا بالتأكيد، وسرعان ما سنحت لنا الفرصة لندرك فائدة وجودهم معنا.

وبعد أن ودّعنا بحرارة أم إبراهيم آغا والحامية، اليت قدّمت تحية السلاح، نمر تحت الصفصاف الكبير، حيث ينبع من القلعة نبع غزير، وبعد ساعتين من السير في الهضاب المتموجة المعتادة، نصل إلى صفصاف، وهو موضع أشار إليه رحالة آخرون لوفرة أطلاله. نجد فيه أولًا بضعة أحواض مستطيلة واسعة ال تزال ملأى بالماء، ثم قناة كبيرة مسقوفة، تحوي هي أيضًا ماءً ممتازًا وفيرًا، وتُقرأ على جدرانها نقوش بالعربية واليونانية. ونلمح من بعيد بعض القبور وأسيجة حجرية واسعة، لكن خوف عربنا واستعجال الجنود لا يسمحان لنا بزيارتها. وبالفعل ندخل منطقة معادية بوضوح؛ فقد كنا قد صادفنا عصابة من البدو طلبت منا خبزًا بأسلوب قليل الأدب، لكنها تلاشت حين رأت الأتراك قادمين.

نصل إلى طريق قديمة، تحفّها القبور من الجانبين، كطريق أبيا في روما؛ بعضها تظلله أشجار سرو كبيرة، وبعضها معزول، جميعها مكشوفة ومتضررة. وأمام ضريح منحوت في الصخر، له واجهة فخمة من الطراز الدوري، نُصبت خيمتا بدو؛ خرجت منهما فتاة بالغة الجمال لتنادي ماعزها؛ شعرها طويل منسدل على كتفيها، وبشرتها بيضاء، ووجهها بيضاوي خالص؛ أفتكون من نسل يونانيي قورينا؟ يتوقف إبراهيم آغا وبعض الجنود معي للنظر إليها، ونطلب منها شربًا؛ فتقدم لنا برشاقة قديمة إناء من اللبن الرائب، نتذوقه بلذة، ونهديها منديلًا تذكارًا منا.

وفي هذه الأثناء تكون القافلة قد تقدمت، ونزلت إلى حوض عشيب واسع، حيث تنتظرنا مفاجأة أقل سرورًا. مجموعة من أكثر من ثلاثين بدويًا، كلهم مسلحون، مجتمعون في وضعية من ينتظر أحدًا؛ ولرؤيتنا يحدث حراك؛ يرفعون بنادقهم عن أكتافهم ويصوّبونها هذه المرة، وأظن -هذه المرة حقًا- وأملأ بندقيتي بالرصاص. يصدر إبراهيم آغا أمرًا للجنود، فيتأهبون ويحيطون بالمسافرين والأمتعة. منظر بنادقهم يمارس أثرًا مهدّئًا على البدو الرحّل؛ يذهب مصطفى وإبراهيم آغا للتفاوض مع الشيخ، الذي يمتطي جواده ويضع الطاقية الحمراء، ويقنعانه بأني "طبيب عسكري"، ذاهب من درنة إلى بنغازي مع أسرته. "السلام عليكم، عليكم السلام"؛ نمر بهدوء أمام صف البدو، الذين يحيوننا باحترام؛ لكن بين أصواتهم نميز صوتًا نعرفه، صوت خادم مطبان، الذي كنا قد أعطيناه هدايا ودواءً في سرية. أجاء ليحمينا، أم أنه أنذر أبناء قبيلته الحسا بقدومنا كي يهاجمونا؟ الجمالة لا يثقون كثيرًا بنواياه الحسنة.

وبعد أن تفحصونا بنظرة ريبة، يتوجه البدو في اتجاه معاكس لاتجاهنا؛ نتقدم نحن بين قبور وأطلال، وسرعان ما نصل إلى السور العظيم لقورينا القديمة. على اليمين تُرى بين الأنقاض خمسة أقواس لكنيسة نصرانية قديمة، ثم كوم هائل من الحطام والأعمدة والدرجات وشظايا الواجهات، تمثال مدرَّع، ربما لإمبراطور، ملقى أرضًا، وآخر بالعباءة لكن بلا رأس، جالس على نوع من عرش وسط الطريق؛ ثم تنحدر الهضبة في شق ضيق، فيظهر البحر من بعيد. ننعطف يسارًا وننصب المخيم في ظل جدار صخري عالٍ، تنفتح عند سفحه مغارة كبيرة يخرج منها جدول صافٍ يخرّ خريرًا. إنها "عين شحات"، نبع أبولو الشهير.

وما إن ننزل عن الركائب حتى نركض بلهفة لنقدّم فروض التكريم لأكثر آلهة الأوليمب حبًا إلى القلوب، إله الشمس والشعر وربّات الفنون؛ لكن لسوء الحظ، ما عدا النبع الذي يتفجر من أعماق المغارة الغامضة، ونقش يوناني منحوت على ارتفاع شاهق في الصخر، لم يبقَ ما يذكّر بمعبد أبولو الفخم الذي كان قائمًا هنا يومًا، والذي ما زالت آثار واجهته العلوية تدل على ارتفاعه. وقد قلب الإنجليزيان سميث وبورشر الأرض في كل اتجاه، ووجدا فيها بعض أجمل التماثيل، الموجودة الآن في المتحف البريطاني.

ولحفظ ذكرى ولو بسيطة عن المكان، أشرع في رسم سكيتش للنبع، وسرعان ما أجد نفسي محاطًا ببدو، يبقون، ربما لقرب الأتراك، في وضعية إن لم تكن ودية فمحترمة على الأقل. صبي واحد فقط يلوّح بفأس ويتحدث عن قطع رؤوس النصارى. وبما أن العرب لا ينبغي أبدًا أن يُظهَر لهم خوف أو ريبة، آخذ الأمر مازحًا وأحاول التحدث مع الآخرين، موحيًا لهم أني من أصل مصري. أحدهم، وقد زار الإسكندرية، يؤكد أن لهجيت تشبه المصرية؛ وشيئًا فشيئًا تهدأ الريبة، وحين أعد بتالر لمن يجلب لي ذئبًا، ننتهي إلى أن نصبح أصدقاء.

ومع ذلك تستمر إشاعات مقلقة في التداول؛ يصل رسول من زاوية السنوسيين القريبة من مخيمنا، وينذر القائد بأن أربعة عشر رجلًا كانوا سيأتون ليلًا على الجمال لنهب خيامنا، لكن شيخ الزاوية منع مضايقتنا ما دمنا على أرضه. يحلّ الليل، وأرى من الحكمة أن أقوم بجولة حراسة من حين لآخر؛ قمر بديع يضيء الأطلال؛ الجنود الأتراك، الذين ضحّينا من أجلهم بجدي، يتناوبون الحراسة؛ وكل شيء هادئ.

وفي الصباح يرغب شيخ الزاوية في رؤية "البويولدك" الخاص بالباشا، الذي يحضره له مصطفى؛ وبعد أن يقرأه بانتباه، يرفعه إلى جبهته إجلالًا ويهتف: "ليحفظ الله السلطان، ومرحبًا بالمسافرين الذين تحت حمايته؛ يمكنهم البقاء هنا آمنين

مطمئنين حتى ما بعد الظهر." وفي الوقت نفسه يطلب منا قليلًا من السكر للشاي، المشروب الوحيد الذي يستخدمه "الإخوان"، وعربونًا للود والامتنان يرسل لنا إناءً من اللبن الطازج جدًا مع رسول، يبقى تحت تصرفنا لزيارة آثار قورينا.

وحين انتشر خبر أن الشيخ دخل معنا في علاقة طيبة، غزا مخيمنا رجال ونساء وأطفال، كانوا حتى تلك اللحظة يتحفظون بريبة. من يطلب دواء لنفسه أو لمرضى، حتى غير الحاضرين، من يريد أن يبيعنا آثارًا، من يريد أن يكون دليلًا لنا. الجميع يبقون باحترام خارج الخيام، وحين نخرج، برفقة رسول الزاوية، لرؤية المقبرة، يتبعنا حشد من الناس اللطفاء المتلهفين لخدمتنا. لكن إبراهيم آغا لا يثق بهم كثيرًا، ويرافقنا بنفسه مع مصطفى وبعض الجنود.

وهكذا محروسين، نقوم بجولة سريعة على الطريق المؤدية إلى مرسى سوسة، أبولونيا القديمة، ميناء قورينا يومًا ما. نحاذي المنحدر الصخري للجبل، المثقوب كله بغرف جنائزية، بعضها منعزل وبعضها في صفوف طويلة، بعضها مكسوّ بواجهات جميلة ذات واجهات وأعمدة دورية، وبعضها الآخر منحوت ببساطة في الصخر، لكنها جميعًا مفتوحة ومنهوبة منذ العصور القديمة، ربما على يد الفرس، الذين انتهكوا في مصر أيضًا مساكن الموتى، بينما يحترمها العرب. وفي كثير من القبور نقوش يونانية تحمل أسماء المدفونين، وفي أخرى زخارف منحوتة بدقة بالغة، لكننا لا نجد في أي منها أثرًا لتلك الرسوم التي شاهدها هاملتون بعد، والتي ربما أُتلفت لاحقًا على يد العرب أو نُقلت إلى متاحف أوروبا. وردًا على إلحاحنا في طلب "التصاوير"، يقودنا الدليل إلى قبر رُسمت فيه سفن وجنود صغار، ربما من عمل بحارة إنجليز ساعدوا سميث وبورشر في نقل التماثيل التي اكتشفوها!

لكن أكثر ما يجذبنا هو المنظر الممتد فوق السهل الأخضر الواسع، المروي بجداول متعرجة، والمنتهي بحافة صخرية تشبه سورًا، تقطعها على مسافات شبه منتظمة تجاويف يظهر خلفها البحر دائمًا. السماء ذات توهج شرقي خالص، وابتسامة الطبيعة الربيعية تتباين تباينًا حيًا مع الذكريات الجنائزية للأجيال الغابرة.

كم كنا سنبقى بطيب خاطر بضعة أيام بين هذه الأطلال، لفحصنا ودرسنا بقايا تلك الحضارة اليونانية الأرقى، وسط الوحشية الأفريقية. لكن إبراهيم آغا يستحثّنا على مغادرة عين شحات؛ فهو لا يستطيع الغياب عن القلعة أكثر من يوم واحد، ودونه ودون فرقته لن يرضى الجمالة بالتوقف بأي حال.

نعود إلى الخيام، وقبل الرحيل نشتري من البدو رأسين رخاميين لامرأتين، بالحجم الطبيعي. لم يكلفا كثيرًا: تالران للأفضل حفظًا، وتالر واحد للآخر، لكن كم من الصعوبات والمتاعب في نقلهما! لم يرد أي من الجمالة أن يضعهما على جمله، خشية أن يرهقاه، وفي كل مرة نرفع فيها المخيم، كان لا بد من السهر والصياح كي لا تبقى الرأسان، اللتان أغلقناهما في سلال من الخيزران، على الأرض.

وبعد وداع أخير للنبع الكلاسيكي، نصعد إلى الهضبة من جديد ونعيد سلوك طريق اليوم السابق، دون أن نلتقي بأحد. نترك على اليمين أطلال معابد فينوس والصهاريج الكبيرة التي كانت تغذي المدينة، وعلى اليسار معبدين آخرين والملعب، ونخرج بأسف من قورينا، التي كانت إقامتنا فيها معجّلة أكثر مما ينبغي. وعزاؤنا الضئيل أن نفكر أنه ما كان يصعب علينا أن نحقق أي اكتشاف مهم، لأن الإنجليز استكشفوا كل شيء بالفعل، ووصفوه ورسموه، بل نقلوا أيضًا كل ما كان جيدًا من حيث المنحوتات.

وحين نبلغ نهاية طريق القبور، يجعلنا مينا، الذي يدّعي معرفة الطريق التي أشار إليها مفتاح بالأمس معرفة دقيقة، ننعطف وننزل في واد على اليمين، لكن ثقته سرعان ما تتلاشى، ونفهم أنه حائر في متابعة السير؛ نحن في أدغال كثيفة، يضيع فيها أثر كل ممر، ولا تستطيع الجمال المرور. وبعد جدال حاد، يتقدم مصطفى، مدعومًا بسلطة إبراهيم آغا الذي لا يزال يحرسنا مع الجنود، إلى مقدمة القافلة، ويجد لنا ممرًا مطروقًا باتجاه الشمال الغربي. وبعد قليل يفضي إليّ بصوت خفيض: "هذا هو الطريق الصحيح، طريق الزاوية البيضاء." - "ومفتاح؟" - "سنلتقيه في المرج." - "والجمالة؟" - "أنا أتكفل بإقناعهم." نتفق فورًا، لأن الطريق المختار أقصر وأكثر إثارة للاهتمام من الآخر، وبعد أن نسير ساعتين أخريين، ننصب المخيم في أمبيسو، بين غابات عرعر جميلة، بالقرب من بعض خيام البدو، الذين، رغم انتمائهم لقبيلة الحسا المتعصبة، يبدون مسالمين، ويستغلون قدومنا ليبيعونا جديًا بثمن باهظ، نبهج به رجالنا.

وقد أراد إبراهيم آغا الطيب أن يرافقنا مع فرقته إلى هنا، ليطمئن على سلامتنا من بدو قورينا، ونقضي المساء بمرح معه ومع الجنود الشجعان، الذين ينشدون أغاني الأناضول، مسقط رأس معظمهم؛ ثم نرتاح مطمئنين، تحت حماية الحراب العثمانية.

الفصل الثامن

أمبيسو. وادي جريب. قصر بنيقدم. الغريب

صباح الرابع عشر من أبريل يبزغ رماديًا ماطرًا؛ التلال ذات المظهر الصارم المكسوة بأدغال كثيفة تجعلنا نظن أننا في الغابة السوداء، لا في ليبيا. نودّع، لا دون أسف، إبراهيم آغا وجنوده، الصبورين المخلصين المنضبطين إلى حد أن العيش معهم يجعل المرء يألف الأتراك. وأظن أنهم من جهتهم كانوا سينسجمون تمامًا مع الإيطاليين، ولو عوملوا معاملة حسنة لكانوا خير حرس للمستوطنين الذين قد يستقرون في البلاد، بينما لا يتآخون كثيرًا مع العرب، الذين يحتقرونهم بوصفهم عرقًا أدنى، والذين يتفوق عليهم الأتراك فعلًا، إن لم يكن بالذكاء، فبالوفاء والشجاعة.

تعود الفرقة الصغيرة إلى غيغاب: أما نحن فنواصل باتجاه الشمال الغربي عبر الغابات، التي تزداد كثافة وجمالًا شيئًا فشيئًا. وسرعان ما نصل إلى مرابط سيدي رفاع، مبنى بديع يتباين، بقبابه البيضاء، مع الخضرة الداكنة لأشجار السرو الكبيرة التي يختبئ تحتها. يتوسل إلينا الجمالة ألا نتوقف، وألا نتكلم، وقبل كل شيء ألا نرسم أو نأخذ ملاحظات، لئلا نثير الريبة لدى من يرانا؛ فنكتفي، بواسطة مصطفى، بإرسال..

قربانًا صغيرًا لزيت مصباح الولي. ويصدّق الشيخ، أو يتظاهر بتصديق، جنسيتنا التركية، ويدعو لنا برحلة موفقة.

وبعد قليل نصل إلى الزاوية البيضاء الشهيرة، مدرسة السنوسيين، وهي بناء جميل مربع فوق تلة، يحيط به سور عالٍ يشبه دير بيت لحم، ومطلي بالجير كما يدل اسمه. وأسفل منه بناء آخر أصغر بجدران خشنة يُستخدم مزرعة، وحوله حقول قمح يعتني بها البدو بعناية فائقة، وهم يقدمون خدماتهم للإخوة الأجلاء كما كان الأتباع يخدمون الأديرة في القرون الوسطى. إنه تنظيم فريد من نوعه، يقوم كله على القوة المعنوية والاحترام لنبي سيدي المهدي، الذي يمسك من واحته النائية في جغبوب بخيوط تلك الجمعية القوية.

ولدهشتنا لا نلتقي بأي كائن حي، سوى أبقار الزاوية السمينة؛ نمر دون أن يعترضنا أحد، لكن دون شك دون أن نمر دون أن يُلحظ أمرنا. نأخذ استراحة قصيرة عند عين بلعرم، واد صغير بهيج، تحيط به أشجار سرو كبيرة وضرو كثيف؛ لكن الجمالة لا يمنحوننا هدوءًا، لأنهم يخشون مباغتة. نمر صامتين مسرعين بجانب قبور كثيرة، فوق بقايا طرق قديمة، ونصل إلى مرابط سيدي عبد الواحد، الشهير أيضًا، حيث تتكرر المراسم نفسها كما عند الأول. ومن العرب الذين نلتقيهم في الطريق، يحيينا بعضهم باحترام بعبارة "السلام عليكم"، المخصصة للمؤمنين، ويكادون يقبّلون أيدينا وثيابنا، بينما يتفحصنا آخرون بنظرة فاحصة طويلة، ولا يبدون مقتنعين تمامًا بإيماننا بالله ونبيه.

ننزل عبر ممر شديد الانحدار إلى وادي عمر المتعرج، المنثور بالشجيرات والخروب، الذي يفضي إلى واد أكبر، كنا قد لمحنا من الأعلى جدرانه الوعرة. يسميه مصطفى وادي جرجروما، لكن معلومات لاحقة استقيناها من مصادر مختلفة تجعلنا نعتقد أن اسمه وادي جريب، المسجل أيضًا في خريطة رولفس، الذي يسمي الجزء الذي عبره هو وادي كوف، ويضع وادي جرجروما أبعد غربًا. ويؤكد لنا العرب أن هذا الوادي الذي نحن فيه ينبع قرب غيغاب ويتجه نحو البحر؛ ويبدو إذن أنه الأهم في المنطقة كلها.

ويصبح المشهد الآن جليلًا حقًا، ويضاهي في جماله البري أشهر مضايق الألب؛ صخور كلسية بيضاء شاهقة، مثقوبة بمغارات كبيرة، تحصر الوادي المظلّل كله بأشجار سرو معمِّرة عملاقة. إنه حقًا عذاب طنطلوس أن نعبر تلك الأماكن الرائعة بهذه السرعة، دون أن نستطيع أن نحتفظ منها بذكرى سوى بعض الخربشات القلمية على دفتر الرسم، دون حتى أن نوقف الجواد. لكن عربنا، مدفوعين برعب غامض لا يفسَّر، لا يمشون بل يفرّون، وكأنهم يعتقدون أن كل شجرة تخفي سحرًا، وأن الوادي كله ملتقى أرواح جهنمية. تتعثر الجمال في كل خطوة بين الحجارة والجذوع الساقطة التي تسدّ الممر؛ فكم من اللعنات على من قادنا في هذا الطريق! لكن مصطفى الصبور، بطبعه التركي الهادئ، يستمع إليها غير مبالٍ، وكأنها لا تعنيه.

ويزداد الوادي عتمة، وتزداد الغابة كثافة؛ وينضم إلينا بدوي من قبيلة البراعصة، خشية أن يتوغل وحده. وبعد ساعة من النزول ننعطف يسارًا، ونترك الوادي الكبير المتجه شمالًا شرقًا نحو البحر، وندخل واديًا جانبيًا صغيرًا ينحدر من الغرب.

هنا يتوقف السرو الكئيب، ويحل محله بساتين أبهج من الزيتون والضرو، نصعد بينها إلى حوض عشيب؛ في قاعه ينتصب قصر متهدم، يبرز داكنًا مهددًا على سماء ملتهبة بلون الغروب. نقترب من مجموعة خيام بدوية؛ وكما يتسلى الفلاحون في أريافنا في الهواء الطلق عند الغروب، كذلك هنا أيضًا تنشغل النساء أمام الخيام، ويلعب الأطفال، ويجلس الرجال في حلقة يتحدثون بهدوء، ربما عن السلاح والتجارة، الموضوعَين الوحيدَين اللذين يهمانهم حقًا. إنه مشهد هادئ رعوي. لكن ما إن يرونا حتى يقفز البدو واقفين بنظرة ريبة، ودون أن يردّوا التحية التي أوجهها إليهم، يحيطون بمصطفى ويسألونه كيف تجرّأ على قيادة النصارى في هذا الطريق. فيجيب كالعادة أننا لسنا نصارى بل أتراك، وإذ يرى أنهم لا يصدقونه كثيرًا، يضيف أننا أصدقاء الباشا والسلطان؛ لكن أولئك الشرسين يضيقون الحلقة حوله، ويصرخون رافعين قبضاتهم أنهم لا يهمهم أمر السلطان، وأن المرور من هناك يستلزم إذن سيدي المهدي، وأنهم سيجعلوننا ندفع الثمن غاليًا. وبالكلام الطيب والصبر، ينجح مصطفى مرة أخرى في إعادة الهدوء، ويلحق بالقافلة، التي كانت قد مرّت مسرعة دون توقف. مرارًا وتكرارًا نلتفت للخلف لنرى إن كنا مطارَدين، لكن يبدو أن ذلك ليس من عادة البدو.

يكاد الليل يحل حين نخيم عند قصر بنيقدم، أكبر الحصون التي كان الرومان يكبحون بها القبائل الليبية القلقة. هنا يتيح لنا الموقع المرتفع أن نسيطر على كل المسالك، بحيث نأمن، إن لم يكن هجومًا، فمباغتة على الأقل. ورغم التعب، نفكر في وسائل الدفاع الممكنة؛ نتفقد الأسلحة ونعيد تعبئتها، ننصب الحراس، نتفق على الإشارات، ونرمي بأنفسنا على الأسرّة بثيابنا. من حين لآخر أخرج من الخيمة لألقي نظرة حولي؛ قمر بديع يضيء القصر والخيام والتلال البعيدة، لكن لا شيء يتحرك، سوى الخيول التي ترعى في الفسحة، والبومة التي تحوم فوق الأنقاض. وهذه المرة أيضًا لا يدبّر البدو هجومًا ليليًا.

لكن مصطفى يخشى الفجر، فرغم ممانعة الجمالة الذين لا يريدون السير ليلًا، نجعلهم يفكّون الخيام قبل الفجر، وتجدنا شمس الصباح في مسير. نقطف قرب القصر بعض شجيرات الدرياس الكبيرة، اليت لن نجدها بعد هذه المنطقة، وبعد النزول إلى واد واسع، نترك أرض الحسا وندخل أرض البراعصة. نمر بمحاذاة خيام كثيرة، منظّمة بترتيب متماثل حتى لتبدو قرى حقيقية، بشوارع وساحات تجتمع فيها القطعان؛ والساعة مبكرة جدًا، فنمر دون أن يُلحَظ أمرنا تقريبًا ثم نصعد عبر ممرات وعرة تتسلقها الجمال كالماعز دون أن تسقط أبدًا، وننزل إلى وديان واسعة خصبة مزروعة قمحًا وشعيرًا، ثم عبر هضاب وأودية وغابات، حتى نصل في عتمة الليل إلى منخفض الغريب، المظلّل بزيتون معمِّر، حيث نخيم. كان هذا أشق أيام الرحلة، لكنه في المقابل جعلنا في مأمن. وطوال المسير لم يكفّ الجمالة عن تحذيرنا: "أسرعوا، هنا كلهم بدو، لصوص كالذئب؛ لا تضعوا القبعة، بل اربطوا الطاقية كي لا يروا أنكم نصارى."

والحق أني أعتقد أن هذه المخاوف من رجالنا كانت مبالغًا فيها إلى حد ما؛ فبكثرة الحديث عن اعتداءات وقعت في أزمنة أخرى، وعن كمائن نُصبت لنا، وبرؤية متعصب يأكل النصارى في كل راعٍ هادئ، وتهديد أو إهانة في كل سؤال يطرحه، كانوا يجعلون أنفسهم موضع ريبة، ويستفزّون الأخطار اليت أرادوا تجنّبها. صحيح أننا لم نكن بين أصدقاء، وكنا نعلم أنه بإشارة واحدة يمكن أن تمتلئ فجأة تلك الجبال، الخالية في الظاهر، بمسلحين يخرجون كأنما بالسحر من الأرض.

في الغريب نجد أنفسنا بين أهدأ قبائل عرب المرج، اليت تحفظها حامية الحصن القريب في حالة احترام. قطعان كثيرة ترد الآبار المجاورة؛ يزورنا الرعاة ويحضرون إلينا مرضاهم، إذ سبقتنا شهرة علاجاتنا الطبية. إنها الالتهابات والأورام المعتادة اليت تعاني منها تلك الشعوب، ويُظهر مصطفى حنانًا وصبرًا رائعين مع الأطفال، الذين يثيرون الشفقة حقًا.

نترك ذلك الوادي، الذي كان سيكون بديع الجمال لولا منظر كل تلك العلل، وننزل عبر وادي بوغراوة الطويل، تاركين على يسارنا طريق تكنس، اليت سلكها كامبرييو، واليت كان علينا نحن أيضًا أن نسلكها بحسب الاتفاق مع مفتاح، لنخرج إلى سهل واسع خصيب، يلمع في وسطه كمرآتين بحيرتا الغريب الصغيرتان، تذكّراننا ببحيرتَي ألسيريو وبوزيانو في لومبارديا العليا. تعج البحيرتان بأسراب من طيور الماء والمستنقعات؛ يصيد أحمدة فيهما لقلقًا كبيرًا يشبه لقالقنا. وعند الغسق نصل إلى قلعة المرج التركية، اليت تصطف أمامها خيام الحامية. يستقبلنا عند المدخل ترجمان القائمقام عارف بك، صهر باشا بنغازي، ويضع تحت تصرفنا خيمة عسكرية جميلة واسعة. وما إن نستقر حتى نقوم بزيارة الشكر لعارف بك، فنجده منهمكًا في احتساس كؤوس صغيرة من عرق المستكة، بين قضمات من الكافيار والجبن.

الفصل التاسع

المرج. توكرة. بنغازي. العودة إلى إيطاليا

يوافق السابع عشر من أبريل عيد الفصح؛ نقضيه مستريحين في المرج، وتتاح لنا فرصة الاحتفال به بعمل من أعمال الإنسانية والعدل. ففي الصباح الباكر، بينما نحتسي القهوة اليت أرسلها إلينا عارف بك المضياف، يُدخل مصطفى إلى خيمتنا بدويّين من قبيلة البو شيالوفة سيئة الصيت؛ يرويان أن شيخهم الكبير سُجن بأمر القائمقام، إثر الهجوم الذي حاوله بعض المشاغبين على قافلتنا؛ ويرجواني أن أتوسط لدى السلطات التركية لإطلاق سراحه، عارضَين تعويض كل ما لحق بنا من ضرر. أجيب أن أضرارنا كانت قد سومحت تقديرًا لتدخل الشيخَين الفعّال، اللذين أقنعا المهاجمين بالتراجع، لكن الجمالة كانوا قد ضُربوا وسُلبوا، وأن مبعوثي البو شيالوفة عليهم أولًا أن يتفاهموا معهم. لم تكن هذه المفاوضات سهلة ولا قصيرة، لأن رجالنا، مبتهجين بتذوّق لذة الانتقام، كانوا يريدون أن تُقيِّد القبيلة كلها بالأغلال حتى يوم الحساب؛ لكن بلاغة الوجيهَين ورنين تالراتهما نجحا في إقناعهم، وجاءا ليخبراني أنهم راضون عن كل شيء، وأن ال شيء من جانبهم يحول دون إطلاق سراح السجين.

فذهبت عندئذ إلى خيمة عارف بك، وبعد نقاش طويل، عقّدته ضرورة الترجمة، لأن عارف بك كان يتحدث العربية قليلًا، وكان ترجمانه يستخدم لغة راقية جدًا تفوق معرفيت اللغوية، تمكنا أخيرًا من التفاهم. وافق عارف بك على إطلاق سراح الشيخ، شريطة أن أعلن كتابيًا أنه لم يعد لدي أي شكوى ضد القبيلة، ولا أي مطلب لدى السلطات العثمانية بشأن حادثة بنيه. فحررت له فورًا بالإيطالية إفادة أُعرب فيها بسرور عن أن تدخل الوجيهَين الفارسين، وأحدهما شقيق الشيخ، أنقذ القافلة من خطر جسيم جدًا. وبعد قليل دخل خيمتنا شيخ البو شيالوفة مع محاميَيه؛ ينحنيان إجلالًا، ويستنزلان علينا كل البركات، ويعداننا أنه إن مررنا مرة أخرى بأرضهم، فسيقدمون لنا الأغنام واللبن والبيض دون حساب، وستدافع عنا القبيلة كلها حتى آخر قطرة دم من أي عدو. وهكذا انتهت القصة بخير.

نقضي بقية اليوم، تارة في خيمتنا حيث يأتي عارف بك بأبّهة ليردّ الزيارة، وتارة نتنزّه حول القلعة، وهي مربّع كبير بأربعة أبراج؛ وفي بعد الظهر نزور البلدة الصغيرة، المشيَّدة عند سفح التلة، وتضم بعض المساكن للضباط ودكاكين صغيرة كثيرة لاستخدام الجنود، الذين يبلغ عددهم نحو أربعمئة، لكنهم يقيمون صيفًا تحت الخيام. ويريد الشاووش مصطفى أن يكرمنا في بيته، بل يعرّفنا على زوجته، فتاة عربية بالغة الجمال، تنظر إلينا أولًا خائفة بعينيها الكبيرتين كعيون الغزال، ثم تطمئن حين تراني برفقة زوجيت، اليت تقترب منها بوّد وتهديها هدية صغيرة. وردًا على ذلك ترسل إلينا فطيرة ممتازة أعدّتها بيديها، إضافة إلى الغداء والعشاء على الطراز التركي، اللذين ال يزال عارف بك يمدنا بهما بكرم ضيافة. وفي المساء "فنتازيا" كبيرة للجنود الأتراك، بالموسيقى والتمثيل الصامت، نذهب لمشاهدتها؛ وكدت أغرق في إحدى الآبار الكثيرة المحفورة وسط المخيم، دون أي حاجز يميّزها.

وفي صباح اليوم التالي يصل الرسول الذي أرسلناه من درنة، بأجر متفق عليه، إلى القبطان بوتيليا في بنغازي؛ يحمل إلينا رسائل من أوروبا وخبر أن باخرة روباتينو ستصل خلال أيام قليلة. فال بد إذن من التعجيل بالعودة، والتخلي بأسف عن جولة طلميثة، اليت يخبرنا عارف بك أنها ليست خالية من خطر على أي حال.

وبينما نجهز أمتعتنا، تفاجئنا مفاجأة سارة: وصول قافلة أخرى. إنه عالم آثار من برلين، الدكتور فروند، صديق شفاينفورت وكامبرييو، يصل بثلاثة جمال، واحد لركوبه واثنان للأمتعة. ال يرافقه سوى دليل سويسري، أحضره معه رفيقًا منذ لوسيرن، لا يعرف سوى الألمانية وبضع كلمات عربية تعلمها في إقامة قصيرة بمصر؛ ومع ذلك سافرا حتى الآن دون حوادث، وهما ذاهبان إلى قورينا، حيث يوفّر لهما عارف بك المتبصّر حراسة من أربعة شيوخ. ويتمّان الرحلة دون إزعاج، بل يوفّقان لاحقًا، رغم إرادة الباشا، في السفر أيضًا من بنغازي إلى طرابلس برًا، وهو طريق كان يُقال إنه بالغ الخطورة بسبب العداوات المتبادلة بين قبائل منطقة سرت.

ويرى علماء الآثار عمومًا أن مكان المرج كانت تقوم فيه قديمًا مستعمرة بارقة اليونانية، اليت احتفظت تلك البقعة كلها باسمها. ال تزال هنا وهناك تُكتشف جذوع أعمدة وقطع من عتبات، ملقاة على الأرض أو مستخدَمة في بناء البيوت، ويُرى خزان كبير مبني بالحجر، ال يزال يُستخدم لخزن الماء، الذي هو وفير في المرج على أي حال. الهواء فيها ممتاز، والأرض بالغة الخصوبة على امتداد واسع، ولو استقرت مستعمرة زراعية في تلك الجوار تحت حماية الحامية التركية، لكانت حظوظها في الازدهار كبيرة.

الطريق من المرج إلى توكرة رتيب، ويزعجنا الذباب وحرّ خانق. يخطئ الجمالة الاتجاه، فنضطر رغمًا عنا إلى التوقف ليلًا عند تلجومة، على حافة الهضبة، حيث تنتهي منطقة السهوب.

وفي الصباح التالي نقوم بنزول العقبة، وهي هنا أقل ارتفاعًا ووعورة منها عند درنة، وإذ نصل باكرًا إلى سهل توكرة، نبقى مخيّمين بقية اليوم احتماء من القبلي الشديد الحار العاصف. وهنا أيضًا زاوية للسنوسيين، تبدي ضيافة وتسمح لنا باستقاء الماء من آبارها.

ونحو المساء، بصحبة تركي لطيف مقيم في توكرة وبعض البدو المجتمعين هناك لحصاد القمح الناضج، نزور الأطلال الواسعة، التي وإن كانت أقل روعة من أطلال قورينا، فهي مثيرة للاهتمام بما فيه الكفاية. نرى أسوارًا كبيرة من كتل حجرية عليها نقوش يونانية، نسخنا بعضها، وجذوع أعمدة ضخمة وتيجانًا كورنثية منحوتة، لسوء الحظ في الحجر الرملي الهش لتلك المنطقة الساحلية، الذي بالكاد يحتفظ بآثار العمل الأنيق، وبقايا مسارح ومساكن، وقبورًا محفورة في الصخر، وأساسات صف من المباني كان لا بد أنها تواجه البحر وتقدّم من بعيد منظرًا مهيبًا.

وفي توكرة يلحق بنا سيدي مفتاح، في حال يبعث على الأسى حقًا. يروي أنه، لدى وصوله إلى خيامه، أرسل شقيقه ليستطلع الاتجاه الذي سلكناه؛ وإذ علم هذا في غيغاب أننا اخترنا الطريق الذي نصحنا بعدم سلوكه، انطلق هو مسرعًا للحاق بنا؛ وأن جواده، في قصر بنيقدم، أنهك من السير القسري ومات أمام عينيه، وأنه، وقد ظل قلقًا دائمًا على مصيرنا، تبعنا سيرًا على الأقدام حتى جُرحت إحدى قدميه، فتعثّر في الأيام الأخيرة بصعوبة بالغة. ندرك ألم دليلنا، إذ نعلم مدى تعلق العربي بجواده؛ نحاول أن نواسيه ونداوي جرحه، وحين نصل إلى بنغازي، أترك له جوادي، الذي كنت قد تعلقت به أنا أيضًا كثيرًا حتى إني كنت أودّ أن أحمله معي إلى إيطاليا؛ لكنه سيحيا بالتأكيد حياة أسعد في سهول بلاده العشبية النضرة، منه في إسطبلات أوروبا الضيقة.

ونترك توكرة، فنحاذي البحر على مقربة، بحيرة برسيس المالحة الطويلة، ونتوقف ليلًا عند ساحة الكوز، وسط غابات من الضرو. هناك يوصينا العرب بأقصى الحذر في إشعال النار، لأن المحاصيل قائمة والعشب مجفف بفعل القبلي، بحيث يمكن لشرارة واحدة أن تُحدث حريقًا هائلًا. فنحيط موقدنا الصغير بمتراس من الصناديق والسروج، نتمكن بينها من إغلاء الماء للمرق والقهوة؛ الليل شديد الحرارة، ولا تزال ريح الصحراء تهب، والسماء كئيبة رمادية.

ننطلق باكرًا، ونتوقف قليلًا عند آبار أوريانا (حيث ربما كانت تقوم مدينة أدريانا القديمة)، ونمكث طويلًا بين الطرفاء على شاطئ البحر. وفي بعد الظهر نستأنف المسير، وننصب آخر مخيم عند سيدي خليفة، قرب المكان الذي لا يُنسى بالنسبة لنا، مكان الغرق.

إنه لحسن حظ حقًا أننا صرنا قريبين من بنغازي: فقد نفدت معلبات اللحم، ولا نجد غنمًا أو ماعز نشتريه، فأصبح العشاء كله رهينًا بماسورات بنادقنا، التي نجد فيها مع ذلك مؤونة كافية من القُبّرات والقماري.

وداعًا يا حياة الخيمة، الحياة الحرة الشاعرية المفعمة بالانفعالات! غدًا سننام من جديد تحت سقف، ولن يعود يحيط بنا الجمال الساهرة؛ ولن نرافق بعد الآن العرب الطيبين، رفاقنا الأوفياء المخلصين.

وتُختتم الرحلة سعيدة بحمام لذيذ في بحيرة زيانة، خليج بحري صغير يتوغل بين الصخور، حيث يُقال إن معبدًا لفينوس كان قائمًا يومًا. وفي بعد الظهر نعود إلى بنغازي وسط طلقات الفرح التي أطلقها الجمالة، الذين طلبوا منا توزيع بارود لهذا الغرض، ونُستقبَل بحفاوة كبيرة من ليفي وبوتيليا وروسوني، الذين خرجوا لملاقاتنا مسافة من الطريق. لم تعد رحلة القافلة سوى واحدة من أعز ذكريات حياتنا.

وما إن نصل حتى نسأل عن باخرة روباتينو؛ لم تصل بعد، لكنها متوقّعة يومًا بعد يوم؛ ولعل سبب التأخير هو هيجان البحر، الذي ما زال يعصف به الشمال الغربي. لكن الأمواج تهدأ، وتسكن الريح، وال خبر لروباتينو. تمر أيام كثيرة، نستغلها في استكمال معرفتنا بالبلاد، وفي إعطاء الأسماء العربية للنباتات التي جمعناها بمساعدة سيدي مفتاح وناني روسوني، وفي زيادة مجموعاتنا في علم الحيوان بمعونة أحمدة وبعض البدو الصيادين. ويُجلَب إلينا، ضمن حيوانات أخرى، ضبع صغير حي، يثبت أنه طيب ومتعلّق بنا كجرو صغير، ويريد دومًا أن يبقى في صحبتنا، مطلقًا عواءً لا ينتهي حين نتركه. وبعناية كبيرة نرسله إلى جمعية الاستكشاف في ميالنو؛ لكنها لا تبدي عنه رضًا كبيرًا، إذ تجده يلتهم مبلغًا طائلًا، فتهديه لصاحبة حديقة حيوان، تستقبله بسرور، لأن الضبع الأليف له قيمة معقولة في أوروبا.

وفي التاسع من مايو يلوح أخيرًا في الأفق عمود دخان، وفي الثالث عشر نركب على متن الباخرة الصغيرة "غورغونا"، ذات الحمولة 150 طنًا، اليت حمّلت على متنها ما لا يقل عن ستين رأسًا من الماشية وسبعين راكبًا. متمايلين بفعل البحر، لكن مطمئنّين برعاية القبطان والطاقم الحثيثة، نصل إلى مالطة، حيث نمكث يومًا. وعلى متن الباخرة الجميلة "ليونه" التابعة لشركة فلوريو، نقوم بواحدة من أهدأ العبورات وأمتعها حتى صراقوسة، ثم عبر الطريق البري الجميل بكاتانيا ومسينا وريجيو وبوتنسا، نعود إلى روما بعد ثلاثة أشهر من الغياب.

الفصل العاشر

امتداد برقة. تكوينها الطبيعي. التضاريس. المياه. المناخ. المشهد الطبيعي. المنتجات المعدنية. النبات. الحيوان

الامتداد والحدود. إن الإقليم الذي كان يُدعى في العصور القديمة قورينائية، والذي تحمل أجزاؤه المختلفة الآن تسميات متعددة، يدخل سياسيًا ضمن والاية بنغازي التابعة للدولة العثمانية. يقع بين خطي الطول 19 و28 درجة شرقًا وفق خط غرينتش، وبين خطي العرض 29 و33 درجة شماألا؛ فيشغل بذلك المسافة الفاصلة بني طرابلس ومصر. من الشمال تحدّد البحر حدوده، أما في االتجاهات األخرى فال تظهر مرسومة بدقة على الخرائط، إذ تعبر أراٍض واسعة غير مزروعة ال يرتادها سوى الرحّل؛ ويُعتَقد عمومًا أن الوالية تبدأ من الطرف الجنوبي لخليج سدرة، خليج السرت الكبير القديم، وتشمل واحات أوجلة وجالو ووداي وجغبوب، وتمتد جنوبًا حتى واحة الكفرة. غير أن سيادة الباب العالي في هذه األخيرة ليست معترفًا بها دون منازعة، وأولئك السكان الشرسون ال يذعنون بسهولة لدفع الضرائب، اليت تكتفي السلطات التركية بتحصيلها منهم فقط حني يأتون إلى المدن لقضاء شؤونهم.

ورغم حماية باشا بنغازي، تعرّض الرحالة رولفس للتهديد بالموت في تلك الواحة أثناء بعثته األخيرة نحو قلب أفريقيا؛ إذ هوجمت خيمته ونُهبت، وتحطمت أو سُرقت كل أدواته العلمية والهدايا الثمينة اليت كان مكّلفًا بحملها، من قبل ملكه، إلى سلطان وداي، ولم ينجُ المستكشف الشهير ورفيقه الدكتور شتيكر إال بمعونة شيخ وفي آواهما لدى قبيلته ووّفر لهما وسيلة العودة إلى بنغازي.

ومن الواحات يتجه الحد شمال شرقًا ليالمس البحر عند رأس القنائص، حيث يُفترض أن تبدأ منه األراضي التابعة لخديوي مصر. كان هذا الجزء الشرقي يشّكل قديمًا مرمريكا، مسرح معارك متكررة بني القورينيني والمصريني والفرس.

فبرقة إذن تحدّها: من الغرب والية طرابلس، ومن الجنوب وداي، ومن الشرق مصر، ومن الشمال البحر؛ ويمكن اعتبار امتدادها أكبر من امتداد إيطاليا، لكن المنطقة الجنوبية، فيما عدا الواحات، ليست سوى صحراء مرعبة، تتناوب فيها الصخور القاحلة مع الرمال المتحركة، رعب القوافل حني تهب ريح القبلي الملتهبة. وهذا هو الجزء الشرقي من الصحراء الكربى، اليت كان القدماء يسّمونها الصحراء الليبية، وال يزال الجغرافيون يطلقون عليها هذا االسم حىت اليوم، وتمتد حىت المنطقة اليت ترويها مياه النيل الخصبة.

وقد اجتازها رولفس في رحلته من بنغازي إلى واحة سيوة، وقّدم عنها وصفًا دقيقًا حيًا، والحظ فيها وجود منخفض كبير، أدىن من مستوى البحر، يبدو أنه يمتد باتجاه من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي حىت فجانجا، تحت خط العرض 22 شماألا. ويعتقد أنه لو شُق قطع عبر سواحل خليج السرت الكربى، ألمكن أن يتكّون بحر داخلي واسع، يصل حىت سفوح الهضبة الليبية؛ فتختفي عندئذ واحات أوجلة وجالو وسيوة تحت الموج، لكن المواصالت مع أفريقيا الوسطى ستتيّسر إلى حد بعيد. وسيكون هذا، بأبعاد أكرب، تكرارًا لمشروع القبطان روديير بشّق أحواض الشط التونسية، الذي كانت الجمعية الجغرافية قد اهتمت به حني أوفدت إلى تلك المنطقة سنة 1875 بعثة خاصة، برئاسة الماركيز أنتينوري.

وقد جاءت نتائج تلك البعثة في الواقع معارضة لمشروع روديير، لكن مؤتمر البندقية الجغرافي قّرر مواصلة الدراسات، وال تزال هذه األخيرة تحظى، ألسباب سياسية واسرتاتيجية، برعاية الحكومة الفرنسية، اليت عَينت مؤخرًا لجنة خاصة لهذا الغرض.

وفي المخطط الذي اقترحه رولفس، ينبغي النظر بجّدية فيما إذا كانت فوائد تنفيذه تستحق نفقة، بال شك، باهظة، وما إذا كان تدمير الواحات الليبية الخصبة سيعّوضه ما قد تجنيه التجارة والمالحة من منافع البحر الجديد.

النطاقات. لنترك آلن تلك المناطق القاحلة والمشاريع الضبابية لمستقبل بعيد، ولنعد إلى البالد البهيجة اليت أتيح لنا زيارتها، أي شبه جزيرة قورينائية القديمة، اليت يسّميها العرب آلن في جزئها الغربي بالد برقة، وفي جزئها الشرقي جبل األخضر. وتتألف من نطاقني متمّيزين تمامًا: الساحلي والجبلي.

األول سهل واسع، يبلغ عرضه قرب بنغازي نحو عشرين كيلومترًا، ويرتفع بانحدار خفيف نحو الجبال. والتكوين السائد، بحسب ما أتيح لي مالحظته، هو حجر رملي متماسك، دقيق الحبيبات، أصفر اللون، يحتوي متحجرات من الحقبة الثالثية، وأهمها أصداف من جنس المحار المروحي. وهذه الصخرة مغّطاة في معظمها بطبقة رقيقة من الرتبة، وفي السهل، حيث يغيب الماء عمومًا، قليل من الزراعة لكن مراعٍ جيدة.

وجنوب بنغازي، قرب قرية البرايقة، تكون طبقة الدبال عميقة، وتوجد آبار عدة تُستخدم لري األراضي، اليت تنمو فيها الحبوب والخضراوات واألشجار المثمرة بازدهار. وتوجد كذلك جنوب شرق بنغازي بعض المنخفضات االفتة، يُنَزل فيها حىت ثمانية أو عشرة أمتار تحت مستوى السهل المحيط؛ ويبلغ بعضها نصف كيلومتر مربع من االتساع. وفي معظمها حُفرت آبار عميقة، يُستخرج منها بواسطة اآللية البدائية اليت وصفتها في الجزء األول من الرحلة، ماء مالح قليًال لكنه صالح للشرب وممتاز للري؛ والرتبة هناك مغّطاة بدبال غين، وتُزرع فيها بنجاح أصناف كثيرة من الفاكهة والقطاني المستخدمة في البالد، وأهمها الفول والعدس والبصل.

وأكبر هذه المنخفضات وأخصبها هو المسّمى سنية عثمان جنائن عثمان جنة حقيقية من الخضرة النضرة وسط السهل الرتيب المشمس. ومن يقرتب من هذه الجنائن ال يلحظ للوهلة األولى شيئًا، ألنها محاطة بسور عالٍ، لكن بعد اجتياز باب الدخول والنزول قليًال عبر صخور ملساء زلقة، يفاجَأ سرورًا حني يجد نفسه في غابة كثيفة جدًا من البرتقال والليمون والتفاح والخوخ والتني، تنبت من تربة داكنة، تظل رطبة دائمًا بفعل الري الوافر، الذي يغّذيه البئر المحفور في أعلى نقطة.

والمنخفض عميق جدًا حىت إن قمم األشجار ال تبلغ مستوى السهل المحيط؛ وال يتجاوزه سوى بعض النخيل، الذي يشير من بعيد إلى العني الخبيرة موضع هذا المتنّزه البهيج، الذي يرتاده أهل بنغازي كثيرًا، محبني قضاء يوم عيد تحت ظالله الوارفة، ُتبهجهم فيه زقزقة الطيور.

ويتجادل علماء اآلثار حول ما إذا كانت هذه هي بساتني الحسربيدات المشهورة، اليت يضعها كثير من الكّتاب القدماء بالقرب من برنيق؛ ومن المؤكد أنه ال يوجد مكان أقدر على استحضار صورة تلك الجنة من الميثولوجيا اليونانية.

ومنخفض آخر، غير مزروع بسبب طبيعة تربته الحجرية أكثر، هو منخفض الجوف، لبّيت القديم على األرجح، حيث خّيمنا للمرة األولى بقافلتنا. وعلى مسافة قصيرة منه توجد أربعة منخفضات أخرى، يُدعى أحدها الجوف الصغير، ألنه يحوي كهفًا أصغر من كهف لبّيت؛ أما البقية فتُدعى باالسم المشترك شعبنة، وهي غنية بالماء ومزروعة بعناية، وهي ملك لبعض أعيان بنغازي.

ويتقّطع النطاق الساحلي ببحيرات كبيرة من الماء المالح؛ بعضها، تكّونه أمطار الشتاء، يجّف صيفًا تاركًا في القاع طبقة ملحية؛ وبعضها اآلخر، المتصل بالبحر، يمتلئ بالماء حني تهب ريح الشمال الغربي، ويجّف حني تهب ريح الرب. أما اليت جنوب بنغازي فقد ُحّولت إلى مملحة بأعمال حفر مناسبة، وتشّكل أحد أهم مصادر دخل الوالية.

وتمتد هذه البحيرات، بفواصل أكبر أو أصغر، حىت جوار توكرة، وتفصل بينها كثبان رملية متحركة، توّقفها بني حني وآخر نبتة هزيلة من الطرفاء وشجيرات السواحل األخرى، المغّطاة دائمًا بقشرة ملحية.

ويبدأ النطاق الجبلي قرب خليج السرت الكربى، ويشّكل قوسًا حول بنغازي، ال ُترى منه المرتفعات إال من بعيد، اليت ترتفع تدريجيًا حىت خمسمئة مرت، وتتواصل شبه موازية للساحل، لكن بعيدة عنه دائمًا، باتجاه الشمال الشرقي، حىت توكرة، توخريا القديمة. وشرق تلك المدينة، الفخمة يومًا واآلن كوم من األنقاض، تقترب الجبال من البحر، وتأخذ اسم األقبة، مشّكلة سورًا صخريًا وعرًا يالزم الساحل بمسافات متفاوتة، حىت ما بعد درنة وربما حىت رأس رأس التني قرب خليج بومبة.

والتكوين السائد في المنطقة الجبلية حجر كلسي أبيض مائل، خشن، مليء بمتحجرات نمولية وغيرها من متحجرات الحقبة اإليوسينية. وتُظهر المرتفعات سلسلة من التالل المستديرة، بال شكل بارز محّدد، ذات منحدر شمالي يواجه المتوسط، ومنحدر جنوبي يواجه الصحراء الليبية، ينحدر إليها عرب سلسلة من الوديان الصغيرة والمرتفعات القليلة.

عند ممر الفرج، الواقع جنوب شرق بنغازي، حيث المسنا للمرة األولى قّمة السلسلة، ال يشّكل الممر سوى نطاق ضّيق، تنحدر بعده األرض شبه فورًا نحو الصحراء؛ وأكثر شرقًا يبدأ تاهة من الهضاب الصغيرة المتموجة والمنخفضات القليلة العمق،

مغّطاة بدبال طيين حديدي أحمر، جعل العرب يسّمون هذا الجزء من اإلقليم برقة الحمراء، في مقابل برقة البيضاء، اليت تمتد جنوبًا حىت تخوم الصحراء.

وتشّكل ميزة مميزة للجزء الوسط من ذلك اإلقليم األحواض الدائرية، اليت تحوي كلها تقريبًا آبارًا محفورة في الصخر. من هذه أحواض بو مريم والعبيار وبينيه وجردس وماراوا وسلونطة وزويي، حيث كّنا في الغالب ننصب مخيمنا. تبدو هذه األحواض مغلقة من كل جانب بالمرتفعات، وال يُرى فيها أي منفذ للمياه؛ تكّون فيها أمطار الشتاء غالبًا برًكا صغيرة، تجّف صيفًا، كما يحدث أيضًا لبحيرات الغريب الصغيرة قرب قلعة المرج، وهي خزانات طبيعية تمتد لكيلومترات عدة، ُتبهج عني المسافر بمرآة مياهها الصافية، المنعشة بأسراب من طيور أبو منجل والبط واللقالق.

وباالتجاه شرقًا، ترتفع الجبال وتتكّون منها سالسل عدة، تتفّرع باتجاه من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، من السلسلة الرئيسية الموازية للساحل. وأقصى ارتفاع بلغناه، والذي بدا لنا أنه النقطة العليا في شبه الجزيرة الليبية كلها، هو نحو 850 مترًا فوق سطح البحر، ويقع فوق سلسلة ضّيقة شرق سلونطة، قرب مرابط سيدي محمد الحمري. ويعتقد الكّتاب الذين تناولوا برقة عمومًا أن أعلى ارتفاع فيها يوجد بجوار قورينا ويبلغ ألف مرت، لكننا لم نلحظ نحن أي نقطة أعلى من تلك القمة، اليت كانت تسيطر على البالد من مسافة بعيدة.

وفي النطاق الجبلي الوسط تتناوب المروج مع غابات العرعر والسرو والضرو، وفي قاع الوديان ليست األراضي المزروعة نادرة. أما الجزء الشرقي، بدءًا من لمسية، فيّتخذ طابعًا أكثر قحًال ورتابة، دون أن يشّكل صحراء حقيقية؛ إنه هضبة واسعة، مغّطاة بطني أصفر، تنحدر جنوبًا شرقًا، وتقطعها تالل منخفضة، بعيدة كثيرًا بعضها عن بعض. وفي الشمال تعود المرتفعات من جديد، حىت يصل المرء إلى حافة األقبة، اليت تنحدر فجأة نحو درنة، تاركة مع ذلك بني سفحها والبحر شريطًا من السهل الحجري، قد يبلغ في بعض النقاط كيلومترًا في العرض.

الوديان والمياه. إن رتابة الإقليم الشرقي يقطعها وادي درنة، الذي ينبع من عدة وديان صغيرة تتالقى قرب قلعة بو حسن، ويجتاز، عرب شق عميق، سلسلة ألقبة، ليصب في البحر شرق المدينة اليت يحمل اسمها.

ويحوي هذا الوادي الكبير في جزئه العلوي بعض اآلبار المحفورة في الصخر، ذهبنا إلى أحدها لسقي الخيول؛ وعلى مسافة ساعتني فوق درنة يتفجر منه نبعان غزيران، عني درنة وعني بومنصور، يقنيان لري البساتني ولحاجة المدينة، بفضل المرابط بومنصور، الذي بهذا العمل الخيري استحق شهرة الوالية وشرف أن تحمل ضاحية من درنة اسمه. وليس مستبعدًا أن تكون تلك المياه تأتي، عرب مسارب باطنية، من ينابيع عني مارة الغنية، اليت تنبع جنوب غرب درنة، في واد بالغ الخصوبة، رأيناه مرورًا سريعًا.

يُقاد النبعان المسربان إلى ارتفاع كبير على الجدران الصخرية، أحدهما يمينًا واآلخر يسارًا من الوادي، وبعد أن يحركا طاحونة بناها األمريكيون، الذين احتلوا درنة لفترة قصيرة في مطلع هذا القرن، ينتشران عرب جداول كثيرة في البساتني الظليلة، اليت تجعل تلك المدينة بهذه البهجة.

وقاع الوادي جاف عادة، وال ُترى فيه إال هنا وهناك برك من ماء راكد، تكسو حوافها الدفلى المزهرة؛ وفي موسم أمطار الشتاء يتكون فيه سيل، يقتحم بعنف وكثيرًا ما يغرق درنة والحقول المحيطة بها.

وفيما عدا هذه الينابيع المذكورة، ال يبدو أن في برقة مجاري مياه ذات أهمية تُذكر؛ توجد فعّال في زويي وغيغاب وسلونطة وماراوا نافورات غزيرة، لكن يبدو أنها تضيع سريعًا في األرض؛ ويحدث الشيء نفسه لتلك الغنية جدًا في عني شحات، نبع أبولو القديم لقورينا، ولألخرى في غرنة، اليت تتفجر في واد على مقربة من ذلك الموقع.

وفي وادي جريب، الذي هو على األرجح أطول أودية برقة، والذي يستحق أن ُيستكَشف بدقة، لم نَر مياهًا، لكن أظن أنه توجد مياه باطنية، وإال لما كان النبات فيه بهذا الكثافة واالزدهار.

وأمام ندرة المياه الدائمة، اليت هي النقص الرئيسي في برقة، كان السكان القدماء قد سعوا إلى التعويض بحفر خزانات، يجمعون فيها أمطار الشتاء، لتوزيعها بعد ذلك على األراضي المحتاجة إلى الري. ال يزال بعضها في حالة حفظ ممتازة، خاصة في صفصاف وقورينا وطلميثة؛ وتوجد أعمال ضخمة من الخزانات والسدود أيضًا في جوار قلعة المرج، بارقة القديمة، وقد ُوصفت في التقرير الدقيق للمندوب مامولي، المنشور في عدد يوليو 1881 من مجلة المستكشف. وبقايا خزانات أصغر توجد في كل أنحاء البالد، وخاصة بجانب األسيجة الحجرية الضخمة في المنطقة الغربية. وقد أُهملت هذه اإلنشاءات جميعها تقريبًا اآلن بسبب تقصير العرب، الذين يكتفون بآبار قليلة، لكن كثيرًا منها يمكن ترميمه بنفقة قليلة؛ وبذلك ُيتدارك إلى حد بعيد ضرر سنوات الجفاف، اليت كثيرًا ما تسبب مجاعات مفجعة.

الموانئ. إن شواطئ برقة قليلة الموانئ. وأكثرها ارتيادًا ميناء بنغازي، لكنه في حالته الراهنة يمثل صعوبات جسيمة للدخول إليه، إذ يجب اتباع قناة صغيرة، محاطة بالصخور، وال تصلح إال للسفن اليت ال يتجاوز غاطسها سبعة أقدام ونصف إنكليزية. أما السفن الكبيرة فُتجرب على الرسو في المرسى المفتوح، وعليها أن تبقى دائمًا جاهزة إلقالع الشراع، حىت ال تُدفع إلى الشاطئ حني تهب ريح الشمال الغربي بقوة؛ ومن يهمل هذا االحتراز يلقى غالبًا نهاية مؤسفة، ومياه بنغازي مليئة بهياكل سفن مهجورة.

ويؤكد القبطان بوتيليا، المندوب السابق لجمعية االستكشاف التجاري، بعد دراسات دقيقة أجراها في الميناء، أن حمايته من الرياح السائدة تستلزم بناء رصيفني، أحدهما بطول نحو أربعمئة مرت، امتدادًا لرأس جوحانا، واآلخر أصغر ينطلق من أسفل القلعة. ويكون من المستحسن أن تقرر الحكومة العثمانية، حرصًا على مصلحة ماليتها والتجارة اليت بدأت تنمو، تنفيذ بعض األعمال الكفيلة بجعل ميناء بنغازي المهم آمنًا حقًا؛ وعند مغادرتنا تلك المدينة كانت قد وصلت من اآلستانة فرقة من المهندسني لدراسة اإلجراءات المناسبة لهذا الغرض، لكن ال يبدو حىت اآلن أن تقاريرهم أسفرت عن نتيجة.

أما درنة فال يوجد فيها ميناء حقيقي، بل مجرد مرسى، ال يوفر أمانًا كبيرًا؛ وأفضل قليًال منه المرايس المخصصة للسفن الصغيرة، في خلجاني طلميثة ومرسى سوسة، أبولونيا القديمة، ميناء قورينا يومًا ما.

أما في الجزء الشرقي فتوجد مراسٍ ممتازة في خليج بومبة، حيث احتمى سنة 1808 األسطول الفرنسي بقيادة األدميرال غانتوم لإلفالت من مطاردة السرب اإلنجليزي، تحت إمرة اللورد كولينغوود؛ وكذلك في ميناء طربق، قرب الحدود المصرية،

يمكن لسفن حتى ذات حمولة كبيرة أن تجد ملاذًا، لكن هذا الخليج، الذي يُقال إنه بالغ الجمال، لم يُستكَشف حتى الآن إلا استكشافًا ناقصًا.

المناخ. تدخل برقة، كسائر ساحل أفريقيا الشمالية، في منطقة أمطار الشتاء، اليت تبدأ عمومًا في أكتوبر وتنتهي في أبريل، وتستمر أحيانًا أيامًا متتالية دون انقطاع. ومن وفرتها الأكبر أو الأقل تتوقف أساسًا خصوبة الموسم، ألن أمطار الصيف نادرة جدًا.

ودرجة الحرارة، وهي أقل من درجة حرارة مصر، ال تختلف كثيرًا عن درجة حرارة صقلية؛ فخالل إقامتنا في بنغازي، من مارس حىت مايو، كان الميزان الحراري المئوي يتراوح عمومًا بني 14 و20 درجة، مع سيادة نسيم شمالي منعش، يتحّول بني حني وآخر إلى عاصفة من الشمال الغربي. وفي الداخل شعرنا بالبرد أكثر من الحّر؛ ففي الليلة اليت قضيناها في نغال، هبط الميزان الحراري تحت الصفر، رغم أننا كّنا في الثاني والعشرين من مارس ولم نكن على ارتفاع يتجاوز خمسمئة مرت؛ وفي زوييي وجدنا أنفسنا محاطني بضباب كثيف جدًا، استمر عّدة ساعات من الليل. أما في درنة وتوكرة فقد كان علينا أن نتحّمل القبلي، الريح الحارة، القادمة من الصحراء كالسموم في الصحراء الكربى والخماسني في مصر، ومنها يصل إلى أوروبا الشلوق.

وتنذر هذه الريح عادة نحو المساء بغروب شمس أكثر روعة من المعتاد، تتخّطط بغيوم طويلة رقيقة ذهبية اللون؛ وفي الصباح التالي تشرق الشمس شاحبة، محاطة بهالة من األبخرة، تزداد كثافة تدريجيًا طوال اليوم، حىت تغّطي السماء كلها بحجاب موّحد، رمادي مصفّر، تمر من خالله أشعة الشمس باهتة الحرقة. يّتخذ المشهد لونًا شؤومًا، وتتساقط أغصان النباتات، ذابلة من جفاف الهواء؛ والحيوانات، اليت تستشعر بالغريزة اقتراب العاصفة الملتهبة، تختبئ بني الشجيرات؛ وال يخرج من مخابئه بأعداد أكرب سوى السحالي واألفاعي، اليت تبدو مستمتعة بذلك الحّر الخانق. وفي الساعات األولى من النهار تبدأ نفحات الريح، متقّطعة أوًال وعلى فترات طويلة، ثم متواصلة، بأصوات غريبة كئيبة، وكأنها تحمل أنّات تعساء أرهقتهم رمال الصحارى البعيدة؛ الهواء جاف ملتهب، وكأنه خارج من فم فرن، يمتلئ برمل بالغ الدقة، يتسّلل إلى كل مكان، في الحقائب، في البيوت المحصنة، بل حىت في الساعات. وفي بنغازي يحمل القبلي أيضًا حصى صغيرة، تلسع وجه المسافر وتجعل التجّول أمرًا غير محبّب. والغروب ليس تلك اللوحة األرجوانية النارية اليت يحلو للرسامني، الذين لم يروا الشرق قط، أن يصّوروا بها القوافل في الصحراء، بل هو على العكس كئيب حزين؛ تّتخذ السماء لون أرض الظل، وقرص الشمس، الذي يكّبره االنكسار الضوئي إلى حد هائل، يختفي ببطء بني ضباب األفق.

ومع حلول الليل يتوقف القبلي، أو على األقل يخّف حّدته، ليعود أشّد قوة مع الصباح التالي؛ ويستمر عادة ثالثة أيام، أو خمسني ساعة، ومن هنا اسمه في مصر خماسني بمعىن خمسني؛ وأحيانًا تليه أمطار محّملة بالغبار المتصاعد، وأحيانًا أخرى، دون انتقال، تخلفه ريح الشمال، اليت تكنس في وقت قصير األبخرة، وتنّقي الهواء من الرمل، وتجعل شمس الشرق تلمع من جديد في بهائها المرح.

وعلى هضبة برقة والجبل األخضر، حيث الرتبة الطينية المتماسكة مكسّوة بنبات وافر، ال يصل الرمل إال من الصحراء الليبية البعيدة، فيكون القبلي أقل إزعاجًا منه في المناطق المنخفضة، وال يسّبب سوى إحساس بالحرقة في العينني وعطش شديد. لكن ينبغي توّخي أقصى الحذر عند إشعال النار في العراء، ألن العشب واألوراق تصبح من الجفاف بحيث إن الشرر الذي تحمله الريح يمكن أن يحدث في لحظة واحدة من تلك الحرائق الواسعة اليت، غالبًا في الربيع، تجتاح بسرعة رهيبة الغابات والحقول وتعّرض للخطر حياة البدو المخّيمني هناك. لذا كلما هّبت ريح القبلي، كان عربنا يكتفون بأكل الخبز والتمر، وإذا أردنا نحن قليًال من المرق أو القهوة، كان ال بد من إحاطة مطبخنا الصغير بمترّاس من الحجارة وصناديق الصفيح.

األحوال الصحية. ورغم أن القبلي كان يرفع الميزان الحراري ريومور حىت ثالثني درجة، فإنه لم يكن له أي أثر سيئ على صّحتنا، ولم نشعر بذلك الوهن واإلعياء اللذين يسّببهما عادة في إيطاليا الشلوق، المشبع كما هو برطوبة يمتّصها من البحر. وعمومًا فإن مناخ برقة ممتاز؛ ففي المناطق الداخلية، ارتفاع األرض الجافة المتموجة، وانبعاثات األشجار الصنوبرية العطرية، تحافظ على هواء نقي منعش، يقّوي الجسم، وقد كاد يشفيين تقريبًا من التهاب شعيب مزمن؛ وعلى طول الشاطئ تفيد الصّحة انبعاثات الملح، لكن ينبغي هناك اتخاذ بعض االحتياطات للوقاية من االنخفاضات المفاجئة في درجة الحرارة، اليت تسّبب أحيانًا حّميات خفيفة وإسهاالت.

وبني عرب المدن، كما بني البدو، تكثر التهابات العني، اليت يولّدها ويديمها نقص النظافة، الناجم عن العادات الراسخة لدى السكان وقّلة الماء؛ وربما ينتقل هذا الداء أيضًا بواسطة الذباب الذي يلتصق بجفون األطفال، دون أن يهتّم األهل بطرده. ووجدنا أيضًا كثيرًا من السكان مصابني بأورام، ربما نتيجة جروح وكدمات لم تُعالَج؛ فأتيحت لنا مناسبات كثيرة لالستعانة بصيدلّيتنا الصغيرة، إلعداد قطرات للعني وتقديم تلك العالجات اليت توحي بها أبسط مبادئ الصّحة العامة.

وال أستطيع أن أويص بما يكفي كل من يعتزم القيام برحلة استكشافية بأن يتزّود بمثل هذه الصيدليات المتنقلة؛ فهي أفضل وسيلة الجتياز القبائل المعادية، والستمالة احترام حىت أكثر السكان تعصبًا بل حّبهم. فاالهتمام بأسقامهم وتخفيف آالمهم أجدى من إغداق الهدايا أو استعراض السالح، وكم كان يدهشنا أن نرى بأي ثقة وامتنان يتناول البدو، على عدائهم للكفار، أدويتنا، وكيف كانت شهرة نجاعتها تسبقنا في طريقنا حىت نجد رجاًال ونساء وأطفاًال ينتظرون قدومنا.

وإذا كان من يمارس مهنة الطبيب والممّرض امرأة، كان األثر أفضل، ألنه ال يبقى أمامها خيمة أو كوخ مغلق؛ وكان مؤثرًا كثيرًا أن نرى البدويات المسكينات يلتمسن من زوجيت بكل هذه الثقة عالجًا ألسقام أطفالهّن، ويحاولن إظهار امتنانهّن بالطريقة الوحيدة المتاحة لهّن، أي بجلب البيض واللبن إلى خيمتنا، اليت كان علينا أن نحرص أشّد الحرص على أال نرفضها.

المشهد الطبيعي. إن مشهد برقة الطبيعي ال يتوافق إطالقًا مع الصورة الشائعة عن أفريقيا الرهيبة الغامضة االلمتناهية اليت لمسها بشعرية دي أميتشيس. وضواحي بنغازي تذّكر بريف روما، وفي داخل شبه الجزيرة الليبية، اليت يمّيزها العرب باسمها المناسب جبل األخضر، يمنح تناوب المروج الغّناء مع غابات األشجار الصنوبرية الكثيفة الطبيعة في مواضع كثيرة طابعًا يكاد يكون شماليًا؛ ولوال أن ُترى بني حني وآخر البرانس البيضاء وخيام البدو السمراء، لظّن المرء أنه يسافر بني تالل ألمانيا الريفية. أما المشاهد المهيبة حقًا، اليت نقلتنا بالفكر إلى سويسرا، فقد أعجبنا بها في وادي جريب الضّيق القاتم، المحصور بني جدران صخرية عمودية عارية، مثقوبة بكثير من الثقوب والمغارات، ومكسّوة في القاع بغابة كثيفة من أشجار السرو المتفّرعة.

وجماالت من نوع آخر رفعت نفوسنا في درنة، حيث تحيط بساتني النخيل والبرتقال والموز بغموض بالحقول الخصبة المزروعة بعناية، حيث تتزّين األودية بالزهور، ويرسم مجرى السيل الدفلى الوردية.

المعادن. أما بالنسبة لمنتجات برقة، فأظن أن المملكة المعدنية ال تقّدم تنّوعًا كبيرًا وال ثروات خاصة. توفر مقالع الحجر الرملي قرب بنغازي مادة بناء جّيدة، وأفضل منها الحجر الكلسي في النطاق الجبلي، الذي ُنحتت منه آثار قورينا وسلونطة. وفي جوار خليج السرت الكبرى منجم كربيت، قد يعود ببعض الربح على من يريد استثماره.

النبات. أهم بكثير من ذلك هي المنتجات النباتية، اليت يمّيز تنّوعها وثراؤها برقة بني المناطق المحيطة بحوض المتوسط. ومن دراسة لعالم النبات الشهير الربوفيسور ب. أشرسون من برلني، أستقي المعلومات التالية عن نبات برقة.

وأول من اهتم بها في هذا القرن هو الطبيب اإليطالي دي ال تشيّال، الذي سبق أن ذكرته في اللمحة التاريخية. فخالل رحلته من طرابلس إلى خليج بومبة، اليت أتّمها سنة 1817، بصفته طبيبًا في فرقة...

وجماالً من نوع آخر أثارت وجداننا في درنة، حيث تحيط بساتين النخيل والربتقال والموز بغموض بالحقول الخصبة المزروعة بعناية، حيث تتزّين الأودية بالزهور، ويرسم مجرى السيل الّدفلى الوردية.

وقد بذلنا في رحلتنا كل عناية وجهد لجمع وحفظ نماذج من جميع النباتات المميّزة للبالد اليت صادفناها في طريقنا؛ ورغم أن الموسم لم يكن قد تقّدم كثيرًا بعد، فقد نجحنا في تجميع مجموعة نباتية معقولة، اعُترف بعد متاعب كثيرة بأنها ال تدخل ضمن أحكام قانون حشرة الفيلوكسريا، فُسمح لها بدخول مختبر النبات في جامعة روما، الذي يديره الربوفيسور بيديتشينو، إلى جانب مجموعة صغيرة من األعشاب البحرية طلبها لدراساته. وبمعونة السيد جيوفاني روسوني ودليلنا مفتاح العدولي، الخبير جدًا بالنباتات النافعة أو الضارة للماشية، تمّكنا أيضًا من مقابلة االسم العربي بعدد ال بأس به من النماذج.

وهذه لمحة موجزة عن أكثر النباتات انتشارًا في كل نطاق. ففي السهل بني بنغازي وجبال الظاهر، أبرز نبتة هي "العنُصل"، اليت تغّطي مساحات واسعة من الأرض وتنمو كثيفة حّتى تشّكل غياضًا حقيقية. وهي شائعة أيضًا، كما الحظت من قبل، في الريف الروماني، لكنها ال تبلغ هناك هذا النمّو. كذلك يكثر الأريض الشوكّي البري، طعام الجمال المفضل، الذي يستطيبه الناس أيضًا. وفي منطقة الهضبة تسود "الشحرة"، من الفصيلة الشفوية، بأزهار صفراء وأوراق كبيرة تشبه كثيرًا أوراق المريمية. والمروج، الغنية بالأعشاب العطرية، مطّرزة بكثرة من الأزهار متعّددة الألوان الزاهية، خاصة الحوذان وشقائق النعمان والخشخاش.

وفي الأراضي الأكثر جفافًا وقرب حدود الصحراء يتوقف الشحرة ويحّل محّله "الشيح"، نبتة عطرية صغيرة، توجد أيضًا في إسبانيا وجنوب إيطاليا، يستخرج منها العرب زيتًا عطريًا زكي الرائحة.

وكان أثمن منتجات البالد في العصور القديمة نبتة "السلفيوم القوريين"، اليت كانت تحظى بتقدير طّبي كبير حّتى إنها كانت تعادل الفّضة قيمة، وتُستخدم لدفع الضرائب، حّتى إن قيصر وجد منها 1500 رطل في خزانة روما، حيث كانت محفوظة كشيء ثمني. وفي زمن بلينيوس كان السلفيوم قد أصبح نادرًا بالفعل، ويقال إنه أُبيد كليًا فيما بعد، إما على يد سّكان برقة أنفسهم للتخّلص من العسف الضريبي المرافق لجمعه، وإما على يد الغزاة الربرب الذين كانوا يخشون آثاره الضارة بجمالهم.

وُيرى السلفيوم مصّورًا على كثري من العمالت القديمة، واعتقد معظم الرّحالة المحدثني أنهم وجدوه في "الّدرياس" عند العرب، أو "الثابسيا الغرغانية" عند علماء النبات، وهي نبتة شائعة أيضًا في جنوب إيطاليا وصقلية، ترتفع نحو مرت، تنتمي لفصيلة الخيميات، وال تزال ُتستخدم طّبيًا كمهّيج قوّي.

ومع ذلك فمن المتنازَع فيه ما إذا كان الّدرياس هو حّقًا سلفيوم اليونان أو االسربيقيوم عند الرومان؛ بل يميل أشرسون إلى الرأي النافي، ألنه ال يتوافق ال من حيث اآلثار الطبية مع ما تركه أولئك الكّتاب مكتوبًا، وال من حيث المظهر مع الّصور المّمثلة على العمالت. ويقترب أكثر من رأي أورستد، الذي يرى أن السلفيوم هو "الحلتيت"، من فصيلة الخيميات أيضًا، الذي ينمو على حدود الهند الشمالية، والذي يقّدم فعًال تشابهًا أكرب مع الصور اليت تركها القدماء، الدقيقة عادة في تمثيالتهم.

وأيًا كان األمر، فالّدرياس من أكثر النباتات تمّيزًا للمنطقة الوسطى والشرقية من برقة، ومن االلفت للنظر التحديد الدقيق للمنطقة اليت ينمو فيها. فقد بدأنا نرى أولى نماذجه عند مدخل حوض ماراوا، على ارتفاع نحو أربعمئة مرت، ولحظنا بعدها كثيرًا منه طوال الرحلة حّتى درنة وحّتى جوارها، فوق مستوى البحر بقليل، ورأينا آخره عند العودة قرب قصر بنيقدم، على ارتفاع 425 مترًا فوق البحر.

ويخشى الّدرياس كثيرًا الجمالة عند نضج بذوره، ألن الجمال، كما الحظ ديال تشّيال أيضًا، تموت إن أكلت منه؛ لذا يضع العرب، حني يجتازون في الصيف المنطقة اليت ينمو فيها، كّمامات على أفواه جمالهم، كما فعل أولئك الذين رافقوا هاملتون في شهر يوليو. أما حني مررنا نحن به، في مارس وأبريل، فكان اإلزهار قد بدأ للتّو؛ فلم يكن هناك خطر، ولم يّتخذ جمالتنا أي احتراز، مكتفني بتحذيرنا من لمس الّدرياس باأليدي، ألنه يفرز عصارة الذعة تسّبب بثورًا على الجلد. ويستخدم العرب تلك العصارة لمداواة الجروح والقروح، سواء لدى البشر أو الحيوانات؛ وإذا ُتناوِلت داخليًا فإنها تحدث أثرًا مليئًا، يتبعه ضعف شديد وتعّرق غزير.

أما األشجار الكبيرة فأكثرها انتشارًا في المنطقة الجبلية "العرعر" (جونيبريوس فينيقيا). نوع من العرعر ينمو أيضًا في إيطاليا لكن كشجيرة فقط. أما في برقة فيّتخذ شكل شجرة مستديرة، ويرتفع حّتى عشرة أمتار، مكّونًا غابات واسعة جدًا، خاصة في المسافة بني بو سمة وصرية.

لكن ملك األشجار هو "السرو دائم الخضرة"، الذي يسّميه العرب "أرس"، وهو االسم نفسه الذي يطلقه السوريون على أرز لبنان. بدأنا نرى هذه الشجرة الصنوبرية المهيبة قرب مرابط سيدي محمد الُحمري، ثم اجتزنا غابات كثيفة، تتألف منها حصرًا تقريبًا، غرب قورينا وفي وادي جريب، حيث تبلغ األشجار أكثر من عشرين مترًا ارتفاعًا. وُيقال إن باشًا قطع منها كثيرًا الستخدام البحرية في ذلك الوادي؛ فخشبها صلب فعّال، ولعله يصلح ألغراض صناعية شّتى.

واعتقد بعض الّرحالة أنهم يرون في هذه الشجرة نوعًا من "الثويا" أو "الكاليتريس"، لكن الربوفيسور بيديتشينو، بعد فحص دقيق لألغصان والثمار اليت جمعناها، حّدد أنها سرو، يتمّيز مع ذلك عن سرو حدائقنا بشكله الشبيه بأرز لبنان، بسبب أغصانه األفقية.

وتنمو أيضًا في غابات المنطقة الجبلية بكثرة الضرو (بآّتوم بالعربية). وُترى فيها أيضًا الخّروب والّسنديان والبطم بأنواع مختلفة، والصفصاف والغار واإلكليل، الذي يبلغ حجم شجرة، والقتلب والعناب؛ وقد تصلح منتجات بعض هذه النباتات لتغذية تجارة مفيدة. ويستحق اهتمامًا خاصًا، بحسب أشرسون، قلف نبتة "الّرص العّليقي" الشوكية (جديري بالعربية)، الشبيهة بزعرورنا األبيض، وأوراق "القسطوس الّصفصافي" (بربس)، اليت يستخدمها الّسكان لصبغ الجلود باألحمر، وكذلك عفصة السنديان والبطم، الشائعة جدًا، والمستخدمة في طرابلس للدباغة.

ومن بني األشجار المزروعة، أنفعها بال شك النخلة (فينيكس داكتيليفرا)، "نخلة" بالعربية، اليت يبدو أنها ال تنمو إال على الساحل، ألننا لم نرها إال في بنغازي ودرنة.

وفي هذا الموقع األول تنمو النخلة نموًا هزيًال إلى حد ما، ربما لملوحة التربة المفرطة؛ في حني تنمو جميلة وارفة في بساتني درنة. ويؤّكد الدكتور مامولي، مندوب جمعية االستكشاف التجاري المقيم في تلك المحّطة، والذي أعّد تقريرًا إحصائيًا دقيقًا جدًا عن أهّم منتجات إقليم درنة، أن عدد النخيل هناك نحو خمسة آالف نخلة، تعطي الواحدة تسعني أقة من التمر، أي ما مجموعه 270 ألف أقة، اليت بسعر أدنى قدره قرش واحد لألقة، تبلغ قيمتها 48500 ليرة إيطالية، دون أية نفقة زراعة، سوى نفقة الحصاد الضئيلة. وتمور درنة ممتازة الجودة.

ومن منتجات النخلة أيضًا العصارة، اليت يسّميها العرب "اللهيب"، وُتستخرج بشّق قّمة الشجرة؛ طعمها حلو حديثة االستخراج، ثم تصبح حامضة، وإذا شربت بكثرة تسّبب ثمًال. ويستهلك العرب، خاصة في الواحات، كميات كبيرة من اللهيب، الذي يقوم لديهم مقام الخمر، لكن النخيل اليت ُيستخرج منها معّرضة للهالك. تعطي النخلة الواحدة في نحو ثالثة أشهر ما معّدله ستمئة أقة من العصارة، اليت بسعر قرش ونصف لألقة تساوي 162 ليرة.

نبتة نافعة أخرى هي الموز (موز بالعربية)، الذي لم نره ينمو إال في درنة. ويقّدر الدكتور مامولي أن بساتني الموز في تلك الحدائق نحو ثالثمئة، تعطي في المتوسط ثالثني ألف عنقود، بقيمة أربعني ألف ليرة. ويمكن إرسال هذه الثمرة اللذيذة حّتى إلى أماكن بعيدة، شرط أن ُتقَطف قبل ثمانية أو عشرة أيام من النضج الكامل، وأال ُتغَلق في صناديق، بل ُتعّلق في أقفاص يصلها الهواء.

وتنمو أيضًا في بساتني درنة وبنغازي معظم األشجار المثمرة اليت لدينا في أوروبا والحمضّيات، وهي ممتازة الجودة. كذلك التوت شائع، لكن ال ُيستفاد منه إال ثمرًا، إذ ال يزال تربية دودة القّز غير معروفة في برقة، وهي اليت ستحقق نتيجة ممتازة بال شك.

وتزدهر أيضًا في درنة الكرمة، وُترى منها جذوع ضخمة جدًا في الباحات والحدائق؛ العنب لذيذ المذاق، لكن الّسكان يكتفون باستخدامه طعامًا، إذ ال يجرؤ أحد على صنع الخمر منه، حّتى ال يشّكل فضيحة أمام المؤمنني الملتزمني بالقرآن.

وتكثر الخضراوات من األنواع المزروعة في أوروبا. ومما يخّتص به الشرق "البامية" (هيبيسكوس إسكولنتوس)، اليت تشبه نوعًا من الكوسا، وطعمها لذيذ جدًا.

الحيوان. إن حيوان برقة ليس غنيًا، ال باألنواع وال بالعدد. وال يعرف المرء كيف ُيعّلل هذه الّندرة، ألنه يبدو أن بالدًا مغّطاة بنبات وافر، وقليلة السّكان إلى هذا الحد، ينبغي أن توفر مالذًا آمنًا لكثير من أنواع الحيوانات. فال يوجد فيها أسود، وال فهود، وال نمور، اليت ال تزال ُتصادف في مناطق أخرى من شمال أفريقيا؛ وأكرب الحيوانات المفترسة هي الّضبع المخّطط (ضّبع بالعربية)، اليت تعيش أيضًا في مصر وسوريا، وتتغّذى عمومًا على الحيوانات الميتة، لكنها إذا استطاعت تتغّذى أيضًا على األحياء، وتفّضل من بينها الحمير. ويصطادها البدو ليحصلوا على جلدها، بل يأكلون أحيانًا لحمها، رغم رائحته الكريهة. والضبع الصغيرة اليت أحضرناها إلى إيطاليا كانت وديعة الطبع، مطيعة، محّبة للمالطفة، ولم تحاول قط عّض أحد، بل كانت تبحث دائمًا عن الرفقة وتعوي حىت ُتترك وحيدة. فرّبطنا لها في بنغازي قّطًا صغيرًا، تعّلقت به، رغم أنها كانت بين حني وآخر تهّزه بعنف بعض اليشء عقابًا على وقاحته. وحىت وصلنا مالطة أرسلناها إلى ميالنو، حيث رأيتها من جديد، وأظهرت أنها تتعّرف علّي، وأظهرت فرحًا كبيرًا بي بعد أسابيع قليلة من االنفصال؛ وهذا يدّلل على أن الّضبع، اليت كان علماء الطبيعة القدامى يستمتعون بتصويرها بوصفها أشرس الوحوش وأقذرها، هي على العكس رقيقة اإلحساس، وتستحق، شأنها شأن بعض الشخصيات اليت شّوهتها كتب التاريخ، أن ُترّد إليها اعتبارها في الرأي العام!

وحيوان مفترس أكثر شيوعًا، وربما أكثر ضررًا من الّضبع، هو ما يسّميه العرب "الّديب"، وهو االسم الذي ُيتَرجم عادة بالذئب. والذئب اإلفريقي أصغر إلى حد ما من األوروبي، الذي يشبهه مع ذلك شكًال ولونًا وغرائز؛ ويرى بعضهم أن "الّديب" يقابل ابن آوى (كانيس أوريوس)، الشائع جدًا في الشرق، لكنه يبدو أصغر وأشقر اللون؛ ويرى آخرون، ومنهم شفاينفورت، أنه "كانيس لوباستر" أو "فاريبغاتوس"، الذي يوجد أيضًا في مصر. وعلى أية حال يبدو أن تسمية هذه األنواع المختلفة من الكالب البرّية لم تستقّر بعد بشكل واضح.

وخالفًا للضّبع، كان "ديب" صغير اشتريناه حيًا في بنغازي، ومات بعد أيام قليلة، شرس الطبع للغاية،ُيظهر أنيابه لكل من يقترب منه.

وأخبرنا العرب أنه يوجد في المناطق الداخلية نوع من القّط الوحشي الكبير ذي الذيل الطويل، لكن لم ُيتَح لنا رؤية الحيوان وال جلده؛ ولعله الوشق اإلفريقي (فيليس كاوس أو كاراكل)، الذي ُيصاَدف أيضًا على ضفاف النيل.

ما عدا هذه الحيوانات، ال أظن أنه توجد ثدّييات أصلية أخرى سوى الغزالن، اليت تكثر نحو الصحراء أكثر منها في المنطقة اليت زرناها، وبعض الخنازير البرية، وكثير من فئران الجربوع والفئران والخلد والقنافذ ونيص وخفافيش.

ومن بني الحيوانات األليفة أكرب حيوان وأكثرها استخدامًا للنقل هو الجمل، الذي ُيربى خاصة في الواحات، وهو من ساللة ممتازة، وكشأن كل جمال أفريقيا له سنام واحد. وهو عادة أشقر فاتح أو أبيض مائل، ووجدناه أهدأ طبعًا وأقّل حّدة من جمال مصر. وال توجد ساللة هجن، مدّربة خصيصًا للركوب، بل ُيختار لهذا الغرض أفضل جمال الحمل.

وخيول قورينا، الشهيرة في القدم والمطلوبة لسباقات الحلبات، ال تزال تتمّيز بالطواعية والقدرة على التحّمل، لكن ليس بالجمال. ولونها عادة رمادي بدرجات مختلفة، ونادرًا ما تكون كستنائية أو حّمراء.

والبغال نادرة جدًا؛ أما الحمير فكثيرة، معظمها داكنة قوية رغم مظهرها المتواضع، لكنها ال تضاهي في السرعة أخواتها في القاهرة، المدّربة جيدًا على العدو.

والماشية البقرية صغيرة، رشيقة القوام، حمراء أو سوداء اللون، بقرون قصيرة. وعلى الثيران، اليت تبدو هادئة الطبع، يحّمل البدو أمتعتهم وخيامهم حني يغّيرون مكان مخّيمهم؛ وُيصّدر من البقر كثير إلى مالطة، حيث تتزّود منه السفن.

وكما في القدم، ال تزال الماعز واألغنام تشّكل الثروة الرئيسية للبالد. ومن الشعر الطويل األبيض واألسمر لألولى يصنع البدو نسيجًا خشنًا لكن شديد المتانة للخيام؛ والصوف الممتاز للثانية يكيس، على شكل الربنس التقليدي، من شيخ القبيلة حّتى آخر خادم، كل السّكان األصليني، وُيصّدر منه كثير أيضًا إلى مالطة وكريت. ومن لبنها ُيصنع كّمية من الزبدة، ُتطَبخ وُتوَضع في جّرات، ُتحّمل منها سفن كثيرة تبحر كل ربيع من برقة إلى كريت. وفي الشتاء ال يقّل عدد الرعاة البدو الذين يقودون قطعانهم عرب الساحل إلى مصر، حيث تجد في الطريق مراٍع جّيدة تصل بها أسمن مّما كانت عليه عند الرحيل، وُتستبَدل سريعًا بتالرات وليرات تركية، لُتذبح الحقًا في أعياد البيرم. والماعز، اليت تكرب كثيرًا، لها قرون طويلة ملتوية، وتشبه ماعزنا أكثر مّما تشبه تلك ذات الجبهة المقّوسة واألذنني المتدلّيتني اليت ُترى في سوريا ومصر؛ أما األغنام فصوفها ناعم جدًا، بيضاء وسمراء، وال تختلف في الشكل عن أغنام أوروبا.

وال ُتضاهي الطيور، ال هي األخرى، عددًا وتنّوعًا وفرة النبات، ورغم أننا حاولنا بكل عناية حفظ وتحنيط ما استطعنا بلوغه ببنادقنا، فلم نتمّكن من إحضار سوى غنائم قليلة. وأكرب طير هو النسر األبيض، الشائع جدًا في مصر؛ وال تنقص أيضًا الُعقبان والصقور والُبوم. لكن الطير األنفع لنا كان الَحَجل الأحمر، الذي يسكن خاصة غابات األشجار الصنوبرية، وكثيرًا ما شّكل كل ما لدينا من طعام في الغداء؛ وهو أكرب من حجلنا وأقرب إلى الذي ُيصطاد في سردينيا؛ وشائعة أيضًا الحمائم والقماري، مماثلة لتلك اليت في إيطاليا. ومن بني الطيور الخّواضة رأينا في برك المرج كثيرًا من اللقالق، وُجلب إلينا في بنغازي من قبل الصّيادين طائر أبو منجل بريش بنفسجّي مخّضر، والحبارى الضخمة اليت ُتدعى في مصر "قيراوان" (طائر القوافل)، وبعض الّدجاجّيات الربّية. وفي كل مكان تكثر القرَبان والَقنابر، السهلة االقرتاب جدًا، ألن العرب ال يعتادون إطالق النار عليها.

وأكثر عددًا الزواحف، اليت أفلحنا في تكوين مجموعة معقولة منها، رغم أن عرب برقة، خالفًا لعرب مصر، يخافون منها وينفرون من اإلمساك بها. ورغم أن الموسم لم يكن قد تقّدم بعد وكانت األفاعي ال تخرج بكثرة من مخابئها، فقد استطعنا مع ذلك أن نحضر، محفوظة في الروح، بعضًا من األنواع التالية: كالوبلتيس إنسيغنيتوس، وزامينيس فلورولنتوس، وكورونيال لوييفيس. وهذه األخيرة، اليت يسّميها العرب "الّلفعة"، يخافها العرب كثيرًا؛ لكن علماء الطبيعة ينفون أنها خطيرة؛ ولم ُيتَح لنا التحّقق مّما إذا كانت تملك أنياب سّم، ألن النموذج الوحيد الذي تمّكنا من جمعه كان ميتًا ورأسه محّطم من ضربات البدو.

ويقال إنه توجد في برقة، كما في مصر، أفعى الرمل الخطيرة جدًا ذات القرنني، وكذلك الناجا السامة أيضًا، القريبة من الكوبرا ذات القّلنسوة في الهند، اليت تنتصب وتنفخ عنقها حني ُتستفَز، وُترى كثيرًا في القاهرة ترقص على صوت مزمار المشعوذين.

وحّدثنا العرب أيضًا عن ثعبان آخر، مزّين بلبدة كالحصان، لكننا لم نستطع التحّقق مّما إذا كان لهذه الرواية أساس من الصّحة، أم أنها من فصيلة روايات البحارة عن الثعبان البحري الأسطوري، وروايات جبلّيينا حول أفاعٍ هائلة بلون النار لم ير عالم طبيعة قط.

والبحر المتوسط على سواحل برقة غني باألسماك، تشبه في معظمها أسماك السواحل اإليطالية، لكن السّكان ال يهتّمون كثيرًا بالصيد؛ ويأتي بدًال من ذلك اليونانيون إلى خليج السرت الصطياد اإلسفنج.

ومن بني الحشرات تكثر الُخنافس، من أجناس بالبس وبيميليا وتينربيو، وأكثر منها الجراد بأنواع كثيرة، الذي كثيرًا ما يدّمر المحاصيل. والحشرة النافعة الوحيدة هي النحلة، اليت تعّشش في المغارات، خاصة قرب درنة، وتنتج عسًال وشمعًا، ُيصّدر منهما شيء.

وليست العقارب البيضاء نادرة، كما في مصر، بل أكثر منها انتشارًا رأينا أّم أربعة وأربعني، اليت جمعنا منها بعضًا ذا حجم استثنائي، ُيقال إنها خطيرة.

الفصل الحادي عشر

السّكان: العرب، األتراك، األوروبّيون، اإلسرائيلّيون. قواعد التعامل مع السّكان األصلّيني. بقايا الحضارة القديمة. المدن الحالّية. الحكومة العثمانّية: اإلدارة، المالّية، القضاء. الملكّية العقارّية. الزراعة. التجارة. الصناعة. المالحة. الخاتمة.

يقّدر الرحالة رولفس سّكان اإلقليم الواقع بني خليج السرت الكربى والحدود المصرية، بما فيها الواحات، بنحو 302 ألف نسمة. وأنا أشّك في بلوغ هذا الرقم، ألننا رغم أننا قطعنا في رحلتنا الجزء األخصب واألكثر سّكانًا من الوالية، صادف أن اجتزنا مساحات واسعة دون أن نرى خيمة واحدة وال بدويًا واحدًا.

والرحل، الذين يشغلون اآلن كل البالد باستثناء المدينتني وضواحيهما المباشرة، يبدو أنهم ينحدرون في معظمهم من الليبيني، الذين كانوا قديمًا منقسمني إلى قبائل كثيرة، عّدد هيرودوت من بينها كسّكان لربقة: الجيليجامي واألسبيت واألوسخيسي والكابالي والنسامون والغرامنت والماكي والجندان واللوتوفاج والماسكيلي واألوشي.

وبعد الفتح العربي، اعتنق السّكان األصليون دين الفاتحني وعاداتهم، وهم اليوم ال يختلفون كثيرًا عن سائر الشعوب المسلمة في شمال أفريقيا. ومع ذلك يحتفظ بدو بعض القبائل بسحنة خاّصة بهم، خاصة بأنوفهم الحاّدة الأقنية البارزة جدًا، اليت تمنحهم، مقرتنة بنظرة نّهمة قلقة شرسة، تعبريًا يكاد يكون تعبير الذئاب أو النسور. متوّسطو القامة، أقوياء البنية وبالغو الرشاقة، أفواههم واسعة وأذقانهم حاّدة، مزّينة بلحية كّثة، اليت في المقابل تكون قليلة على الوجنتني.

أما النساء فصغيرات القامة جميالت ما دمن يافعات؛ يحببن وشم الّذقن والذراعني واليدين باألزرق، ويكحلن حواجبهّن بالأسود بدالل كبير؛ لكنّهن يشخن سريعًا، وعندئذ ال يمكن القول إنهّن جميالت حّقًا.

الطعام الرئيسي للرّحل هو "الَبِسيَطة"، نوع من عصيدة الشعير، تتبّل بالزيت والفلفل الأحمر المجّفف والمطحون. وقد ارتكبت طيًشا فتذّوقتها، فأصابين من الحرقة في الفم ما اضطرين لشرب ماء كثير جّدًا للتخّلص منها. كذلك يستهلكون كثيرًا من التمر القادم من واحات أوجلة وجالو وسيوة؛ وهذا األخير هو األكثر طلبًا لطعمه اللذيذ، وألنه أقّل اختالطًا بالتنب والرمل. وفي المناسبات الرسمية، كأعياد األولياء والزيارات واألعراس، يذبحون كباًشا وجديانًا، يفّضلون سلقها في القدور الضخمة اليت تتوّفر عليها كل خيمة، بدًال من شّيها كما يفعل بدو البالد األخرى. أما الخزب فُيخَبز بني حجارة مّحماة؛ طرّي حني يكون طازجًا، لذيذًا نوعًا ما إن جّف قليًال.

ولباس البدو قميص من نسيج قطين أبيض، خفيف رقيق، ُيَصنع خصيًصا في إنجلترا للتصدير إلى أفريقيا؛ وفوقه غالًبا صدرّية بجيوب صغيرة، وسراويل ضّيقة من الرّكبة نزوًال، من القماش نفسه. ولدى الجميع الرداء الطويل العريض من الصوف الغليظ، أبيض أحيانًا، رمادّي أو أسمر أحيانًا أخرى، يسحبونه فوق رؤوسهم حني تهّب الريح أو يهطل المطر، أو حني يستعّدون للنوم.

أما الغطاء الحقيقي للرأس فهو، لدى الأكثر ثراًء، الطاقّية الحّمراء المسلمة المعتادة، وتسّمى هنا "الطاقّية"، وُتصنع في تونس؛ وهي أوسع من الطربوش التركّي والطربوش المصري، ولها شّرابة زرقاء كبيرة. أما اآلخرون فيلبسون طاقّية بيضاء، مزّركشة بتطريز أسود يدوّي. وينتعلون بابوًجا أصفر أو أحمر، من جلد خشن.

الرفيق الأمني لكّل البدو هو البندقّية الطويلة ذات الفتيل الصواني، اّليت يفّضلونها على األسلحة األحدث، حّتى لو أمكنهم اقتناؤها، بسبب صعوبة تدبير الكبسوالت والخراطيش، بينما يحصلون بسهولة على البارود المهّرب. أما الرصاص فأصعب عليهم اقتناء، وحني ال يجدونه يحّشون البنادق بحّصى صغرية، تحدث جرًحا ممّزًقا، لكّنها ال تضمن بالتأكيد دّقة كبيرة في الرمي. ويحمل معظمهم حربة معّينة مثّبتة على البندقية، وكثير منهم أحزمتهم مزّودة بمسّدسات وبنادق قصيرة، صوانّية أيًضا، بل وخناجر صغيرة مستقيمة بمقبض دّوار.

أما البدوّيات فيرتدين أقمشة قطنّية مصبوغة بالنيلي الغامق، ويلففن رؤوسهّن بأقمشة من اللون نفسه، أحيانًا مخّططة بالأحمر، وفي السفر ينتعلن أحذية عالية، مصنوعة من قطعتني من الجلد الأصفر أو الأحمر، مربوطتني على الساق، بنعال خشنة من جلد الجمل.

وحياة البدو، كحياة كّل الرّحل، بسيطة، مكّرسة لرعاية القطعان والخيمة والأسرة. وإلى جانب انشغالهم بالرعي، يزرعون في قاع الأودية الأخصب حقوًال صغيرة من الشعير والقمح، يستخدم محصولها لصنع الخبز ولتغذية الخيول والحمير. وهذه األراضي غير مقّسمة، وُتعتبر ملًكا للقبيلة؛ والنزاعات حول الحدود، وأكثر منها سرقات الحيوانات، تؤّدي إلى حروب صغيرة متكّررة بني القبائل المتجاورة. ولنقص كمال األسلحة، وللحذر الذي يّدخر به البدو البارود الثمني، إذ يبدؤون القتال بالحجارة وال يطلقون النار إال عند تأّكدهم من اإلصابة، ال تكون المعارك عادة فّتاكة جًدا، لكنها تخّلف وراءها ذيًال طويًال من األحقاد والعداوات، ألن العرب يرون أنفسهم ملزمني باالنتقام لكّل موت أو جرح يصيب أحد أفراد القبيلة، حّتى ُيتَوّصل إلى تسوية حول ثمن الدم.

ومن الطريف أسلوب تحّية البدو بعضهم بعًضا. فحني يلتقون في الطريق أو يزور بعضهم بعًضا في الخيام، وبعد "السالم عليكم" الذي ال غنى عنه و"عليكم السالم" الذي ال يقّل عنه ضرورة، يتعانقون ويتقّبلون مراًرا، واضعني رؤوسهم بالتناوب على الكتف اليمنى ثم اليسرى، بطريقة منتظمة إيقاعّية؛ ثم يبدأ وابل من األسئلة: "كيف حالك؟" و"كيف لونك؟"، يكّررونها مراًرا وتكراًرا، دون انتظار الجواب ثم يسألون: "كيف بيتك؟"، يقصدون الزوجة اليت ال يليق ذكر اسمها؛ "كيف أوالدك، أغنامك، حميرك، جمالك؟"، ثم سلسلة جديدة من "كيف حالك" و"كيف لونك"؛ وبعدها يسألون عن أخبار السوق، سعر القمح والشعير والماشية في بنغازي أو درنة؛ وأخيًرا يتبادلون آخر أخبار السياسة أو الشؤون الخاصة. وكل هذه المراسم تستغرق بطبيعة الحال وقًتا، وتضع صرب من يسافر بصحبة العرب على محّك.

ومن بني قبائل الرّحل أكرثها عدًدا قبيلة العواقير، المستقّرة حول بنغازي؛ وأكثر شرًقا نصادف العبيد، الذين ينتمي إليهم البو شيالوفة، الذين هاجمونا؛ ثم تأتي قبائل الرباعصة والحسا والعبيدات، الذين يقيم كّل منهم في أراٍض محّددة بدّقة، حّتى خليج بومبة.

وعرب المدن هم في معظمهم مالك أو مزارعو األراضي المحيطة، أو صغار تّجار؛ أما تجارة الجملة والصناعات فيمارسها أساًسا اإلسرائيلّيون واليونانّيون وأهل كريت...

وإلى جانب الإسرائيليني واليونانيني وأهل كريت، يستحق المالطيون واإليطاليون أيًضا أن ُيذَكروا. فالمالطيون، الماهرون في كل ضروب المضاربة، يقّدمون أيًضا أفضل البّنائني. ويتاجر المالطيون واإليطاليون بالمنسوجات القطنّية والأسلحة والأواني الفّخارية والبارود المهّرب والرصاص وغيرها، ويستوردون كّميات كبيرة من الأرز، ويستخدمون كصابورة لسفنهم أخشاًبا وحجارة من مالطة. أما أهل كريت، مسلمني كانوا أم نصارى، فيمكن القول إنهم يحتكرون المقاهي ودكاكني البضائع اإلستعمارّية، ومن بينهم أفضل اإلسكافّيني. واإلسرائيليون هم كّل الّصياغ، وبعض النّجارين، وأمهر الخّياطني، خاّصة في الثياب األوروبّية والشامّية؛ وأثرياؤهم يحتكرون تقريًبا المبادالت مع واداي، ويتاجرون بالحرير والأصباغ والعطور ومستلزمات الّلباس.

واإلسرائيليون أيًضا هم المّوردون الوحيدون للمواد الغذائّية ألبناء دينهم، إذ ال يستطيعون تذّوق أّي طعام أعّده أو حّتى المسه نصراني أو مسلم، وهم عموًما دقيقو المراعاة لهذا الحكم.

أما الجميع، إيطالّيني ويونانّني وإسرائيلّيني ومالطّيني وقندّيني، فيمارسون دون تمّيز اإلقراض بالرهن، بفائدة قدرها قرش واحد على المحبوب في الشهر، أي ما يعادل ستني في المئة سنوًيا. والمحبوب عملة خارجة من التداول فعًال، لكن ال يزال يجري بحسب قيمتها اإلسمّية كل التعاقد، وتساوي تقريًبا قطع الّتالر عندنا، أي عشرين قرًشا.

أما عربي المدينة فال يشارك إال بدور ثانوي جًدا في كل هذه الصناعات المذكورة؛ إنما اختصاصه: أشغال الجلود، وجّرات الماء، وضفائر سعف النخيل، وله السبق المطلق في تصدير الماشية والحبوب.

عادات السنوسيني. إن كل العرب، خاصة البدو، متدّينون جًدا بل ومتعّصبون، وإن كانوا ال يراعون دائًما بصرامة أحكام القرآن؛ وكثيرون ينتمون إلى الطريقة اإلسالمّية السنوسّية، اليت تعترف بسّيدي المهدي، المقيم في واحة جغبوب قرب الحدود المصرّية، رئيًسا ظاهًرا لها. وهذا الولي، وهو ابن شخصّية أشهر منه وأكثر توقيًرا، أصلها من المغرب، ُيعتَقد أنه قادر على صنع معجزات عظيمة. ويروي أتباعه أن مئات األشخاص القادمني في رحلة تعّبد إلى جغبوب يجدون دائًما ما يشبع جوعهم، ألن الطعام والشراب ينزالن من السماء. بل ُيقال إن في تلك الواحة النائية مؤونة وافرة، بل حّتى أشياء كمالّية كثيرة، أهداها الحّجاج أنفسهم، الذين يفدون إليها من جهات كثيرة، ألن نفوذ السنوسّيني يمتّد أيًضا إلى طرابلس، وإلى واحات مصر، وحّتى تخوم واداي، وُيديمه وُينّميه أوقافهم، أي الزوايا أو المدارس القائمة في المدن وفي أفضل مواقع األرياف.

وينبغي اإلقرار بأن هذه الطريقة، رغم عدائها للغرباء، الذين تسعى لمنع دخولهم البالد، تمارس مع ذلك تأثيًرا حسًنا على أخالق الّسكان ورفاهّيتهم، وقد ساهمت فعًال، بواسطة النفوذ القوي للتعّصب الديني، في انتشالهم من الخمول والفتور؛ فالزوايا، إلى جانب كونها مدارس ُيعّلم فيها أحكام القرآن، هي أيًضا مزارع نموذجّية، يتعّلم فيها البدو زراعة أرضهم بعناية أكرب.

وقد أشرت سابًقا في هذا التقرير إلى أن القبطان كامبريبو كان قد وّجه إلى سيدي المهدي رسالة يطلب فيها اإلذن بزيارته وتقديم الهدايا اليت خّصصتها له جمعية االستكشاف التجاري بميالنو. وقد جاء رّد هذه الرسالة، بعد مغادرتنا برقة، مهّذًبا لكّنه سليب، أبلغه لوكيلنا القنصلي باشا بنغازي. فسيدي المهدي يشكر كامبريبو على نّيته، لكّنه يعتذر عن قبول الهدايا، مؤّكًدا أن السنوسّيني قوم مسالمون وليس لهم من النفوذ على سّكان البالد ما ُيَظن؛ ونصح بعدم الشروع في رحلة جغبوب، بسبب ما يرافقها من أخطار كثيرة.

واللغة اليت يتحّدث بها سّكان برقة األصلّيون هي العربّية حصًرا، لكّنها مختلفة إلى حد ما عن عربّية مصر؛ وتختلف بخاصة تسميات أدوات الطعام واالستخدام اليومّي. وخالًفا للمصرّيني، ينطقون الجيم قريًبا من القاف الثقيلة، كما يفعل أهل الحجاز، اليت هي، من حيث اللغة، توسكانا العرب.

وال توجد ود كبير بني سّكان المدن والبدو؛ فالمدنّيون يخشون الّرحل، الذين يعتربونهم شرسني: "البدواني حق الديب" (البدو مثل الذئب)، هذا هو الالزمة اليت كّررها لنا الجميع، من الباشا حّتى آخر جّمال.

الأجانب. قليل حّتى اآلن عدد األجانب المقيمني في والية بنغازي. وينتمي األتراك أساًسا إلى فئة المّوظفني أو العسكرّيني، إضافة إلى بعض أهل كريت، معظمهم مسلمون، مكّرسون للتجارة والصناعات البحرّية. وبني الجاليات األوروبّية يتقّدم عدًدا المالطّيون، ونحو مئتني تقريًبا، جميعهم، باستثناء أسرة واحدة، مستقّرون في بنغازي؛ وتقتصر أيًضا حّتى اآلن الجالية اإليطالّية على تلك المدينة، وتتألف من نحو خمسني شخًصا يمارسون التجارة ومهًنا مختلفة. أما الرعايا الفرنسّيون فلم يكن منهم وقت مرورنا سوى نائب القنصل، وبعض جزائرّيني ذهبوا حّجاًجا إلى مّكة ولم يجدوا وسيلة للعودة إلى ديارهم.

ويوجد أيًضا بني بنغازي ودرنة نحو ألف إسرائيلي، قليل منهم مواطنون أو محميون أجانب، ومعظمهم رعايا للباب العالي، ربما ينحدرون ممن استقّروا في البالد أيام حكم البطالمة. والحظت فرًقا الفًتا بينهم وبني يهود فلسطني ومصر، الذين يّتصفون عادة بتواضع منكسر؛ فهؤالء في برقة على العكس وسيمون أقوياء رشيقون؛ وليس نادًرا أن ُترى فيهم شباب يصلحون نموذًجا لداود أو يهوذا المّكابي. وتقع في أيدي اإلسرائيلّيني معظم التجارة والصناعات؛ والمسلمون، رغم أنهم ال يّتصفون بود كبير نحوهم، يلجؤون إليهم في شؤونهم، خاّصة حني يحتاجون إلى قروض مالّية، اليت ُتعَطى برهن وبفائدة باهظة جًدا.

قواعد في التعامل مع الّسكان األصلّيني. وال يخلو من فائدة هنا أن أشير إلى بعض القواعد المستحسنة في التعامل مع سّكان البالد اليت زرناها. فاألوروبّيون، في البالد اليت يعتربونها أقّل تحّضًرا، يعتقدون عموًما أن من حّقهم بل من مهّمتهم أن يأمروا السّكان بصرامة وأن يفرضوا سطوتهم في ديارهم، مستخدمني غالًبا وسائل ليست حًقا األصلح إلعطائهم فكرة حسنة عن حضارتنا المزهو بها. وهذا الأسلوب، حّتى لو لم يثر رّد فعل عنيف فوًرا، يوّلد ويديم لدى السّكان استياًء كتوًما، قد ينفجر أحياًنا ألتفه األسباب وفي أقل األوقات ترّقًبا.

ينبغي اإلقرار، إنصاًفا للحقيقة، أن اإليطالّيني، بطبعهم المرح الّطيب عموًما، ينجحون أفضل من غيرهم من األجانب في إقامة عالقة ودّية مع الشرقّيني، تتحّول أحياًنا إلى صداقة حقيقّية؛ لكن رجالنا يقعون بسهولة أيًضا في اإلفراط المعاكس، أي األلفة المفرطة، وهذه أيًضا ينبغي تجّنبها.

ومن الحكمة أن ُيراَعى مع أهل الشرق سلوك ودّي لكّن جاد، وأّال ُيظَهر أبًدا الخوف، وقبل كل شيء أن ُتلَتزم صرًبا ال يتزعزع، وهي فضيلة تدّربنا عليها طوًيال. ويخطئ من يظّن أنه يحّقق شيًئا بالتهديد أو الغضب؛ فالشرقّيون، الرصينون الهادئون دائًما حّتى في غضبهم، يسخرون من عصبّية األوروبّيني وال يعبؤون كثيًرا بصياحهم.

وينبغي قبل كل شيء احترام الّدين، بل حّتى، إن أردنا، بعض معتقدات المسلمني الشعبّية؛ لذا يستحسن قدر اإلمكان تجّنب الظهور بمظهر من يشرب الخمر أو يأكل لحم الخزنير. وفي األماكن اليت يسود فيها التعّصب أكثر، من المستحسن أيًضا ارتداء الطربوش التركي أو الطاقّية التونسّية، اللذين ُيعتَبران رمًزا للمؤمنني، بدًال من القّبعة اليت ينظرون إليها بعني الاستياء، ألن الّدين يأمر أال يحول شيء بني العني والّسماء. لذا يقولون في برقة إن التونسّيني، الذين يلبسون قّبعات القش الواسعة، ليسوا مسلمني صالحني.

وطبع العرب طّيب بطبيعته، وودود مع من ال يعاملهم باحتقار وتكّبر؛ وعرب برقة ال يبدون طّيعني منقادين كما هو حال المصرّيني، بل يشعرون أكثر منهم بكرامة اإلنسان؛ وليسوا أيًضا نهمني كالفّالحني، وفي رحلتنا كّلها لم يحدث أن سمعنا كلمة "بقشيش" (هدّية) اليت ُتضايق كثيًرا المسافر على ضفاف النيل. نادًرا ما يطلبون؛ وإن ُأعطي أحدهم إكرامّية أو تذكاًرا، شكر لكن دون مبالغة في اإلظهار. وأهّم عيوبهم الخمول وقّلة التبّصر؛ فحني تنقطع الأمطار في الشتاء، ويشّح بالتالي محصول القمح والشعير، يموت الّسكان جوًعا، ألنهم ال يفّكرون أبًدا باالّدخار للمستقبل في سنوات الوفرة؛ وكثيًرا ما مررنا بجانب آبار ماء ممتاز دون أن يهّتم الجمالة بمأل قربهم، رغم علمهم أنهم عند وصولهم المخّيم سيبقون بال ماء أو سيضطّرون لقطع مسافة طويلة أخرى ليتزّودوا به.

اآلثار. برقة مليئة باآلثار حّتى أن رولفس يسّميها "مقربة كربى". وقد أشرت سابًقا إلى تلك اليت ربما تعود لعصور ما قبل التاريخ، اليت رأيناها في هاوة سغاي وسلونطة وصفصاف؛ وإلى جانب هذه، الحظنا في أماكن كثيرة جًدا أسيجة حجرّية وقبوًرا ومغارات، طبيعّية جزًئيا ومحفورة جزًئيا، ربما كانت مساكن لسّكان الكهوف، ولعّلها أصبحت الحًقا قبوًرا لهم.

أما آثار العصر اليونانّي فتوجد أساًسا في قورينا، ومرسى سوسة، وتوكرة، وطلميثة، وفي المرج، بل وفي بنغازي أيًضا، حيث ينبغي أن تكون مطمورة في معظمها تحت المدينة الحالّية. وترتفع في أماكن عالية عديدة أطالل قالع، ربما بناها الرومان؛ رأينا أفضلها حفًظا في بينيه وسرية وقصر نسّوة وقصر بنيقدم؛ وذكر رّحالة آخرون أيًضا باالكري ومرسيد، اللتني لم نصلهما. وهنا وهناك ُترى أيًضا أطالل قالع عربّية كبيرة، كما في قصر مستنانج ورأس اللبن وبو حسن.

وفي بعض المواضع، خاّصة قرب قورينا وسلونطة وعني مارة، تظهر مقاطع قصيرة محفوظة جيًدا جًدا من طرق قديمة محفورة في الصخر، دليًال على تواصل متكّرر بني المراكز المختلفة اليت كانت قائمة في برقة، المأهولة في القدم بمستعمرات كثيرة.

مراكز السّكان. حالًيا ال توجد سوى ثالثة مراكز فيها بيوت: بنغازي ودرنة والمرج؛ وفيما عداها لم نَر أّية منشآت غير قلعة غيغاب، وثالث زوايا للسنوسّيني، والمرابط، وهي قبور األولياء المسلمني. وفي بقّية البالد كّلها ال ُترى سوى خيام البدو السمراء، المنسوجة من شعر الماعز، اليت ُتحَمل على الجمال أو الثيران حني يتغّير مكان اإلقامة. وهذه الخيام، اليت ُتنَصب صيًفا نحو الشمال، مريحة للسكن إلى حد ما، وما دامت جديدة تحمي بشكل معقول من األمطار.

مدينة بنغازي، كما أشرت سابًقا، فاقت توّقعنا؛ فمن أوصاف الرحالت السابقة اليت قرأناها كّنا قد كّونا فكرة عن مكان من أقذر األماكن، عّش لأسراب من الّذباب اليت ال ُترجى منها راحة وال مالذ. لكّننا عند وصولنا وجدناها، بالنسبة لمدينة شرقّية، نظيفة إلى حد معقول، وكان الّذباب غائًبا عنها الًتا؛ لكّنه كان وافًرا عند عودتنا، وإن لم يكن أكثر مّما في نزل كثير من بلداتنا.

ولو لم تكن عزلتها الدورّية عن العالم المتحّضر، لما كانت بنغازي إقامة غير محّببة؛ فهي تضّم أسواًقا مختلفة، جّيدة التموين نسبًيا بالمنتجات والسلع، ساحة معقولة، قلعة كبيرة مقّر الباشا والّدوائر، وحًيا أوروبًيا فيه بيوت صغيرة لكن غير مزعجة يقيم فيها عّدة أسر متحّضرة؛ وللحاجات الّروحّية لمختلف األديان فيها كنيسة كاثولكّية كبيرة، ومصّلى يونانّي، وكنيس يهودي، وبعض المساجد.

وبحسب اإلحصاء الذي أرسله القبطان بوتيليا إلى جمعية االستكشاف التجاري، يبلغ عدد سّكان بنغازي خمسة عشر ألًفا، وعدد بيوتها ألًفا وتسعمئة وخمسني بيًتا عربًيا وخمسني بيًتا أوروبًيا.

أما مدينة درنة، فبحسب البيانات اليت جمعها المندوب الدكتور مامولي، فيها 7800 نسمة، يعيشون في 687 بيًتا، معظمها من طابق واحد بفناء. وفيها أيًضا سوق معقول التموين، ومسجدان، وقلعة تقيم فيها السلطات. وال يوجد فيها ال طبيب وال صيدلّية، والنصارى القليلون المقيمون فيها ُيولدون ويموتون دون معونة كاهن.

وقرب قلعة المرج تنتصب بلدة صغيرة تتكّون من ساحة واسعة وأزّقة قليلة، يقطنها نحو ألف نسمة بني عرب وأتراك، معظمهم عسكرّيون وذووهم.

اإلدارة. كانت والية بنغازي تابعة لوالية طرابلس حّتى سنة 1879، حني ُعّني فيها بأًشا، براتب متصّرف، يبلغ بحسب ما ُقيل لي نحو أربعني ألف فرنك سنوًيا. ويتبعه القائمقامون الخمسة في درنة والمرج وغيغاب وأوجلة وطربق، اليت تقابل مناصبهم تقريًبا مناصب فرعّيات في نظامنا. وفي بعض المواضع، كعني شحات وبومبة، يوجد "مدير" بصالحّيات أضيق.

ويعاون الباشا في شؤون الوالية "المجلس"، المؤّلف من القاضي (قاضي الشرع)، وشيخ بلد بنغازي (رئيس البلدّية)، والمحاسب، وباش كاتب (رئيس الكّتاب)، وثمانية أعضاء يعّينهم الباشا. وطبيعّي أن هذا المجلس ال يفعل عادة سوى الموافقة على ما يقترحه الباشا؛ لكن أحياًنا تنشأ خالفات ونزعات معارضة، تصبح مادة ال تنتهي للتعليقات لدى الّسكان، وهي الحدث السياشي الكبير في البالد.

القضاء. تدير العدالة ثالث محاكم مقّرها بنغازي. القاضي مختّص بالشؤون الدينّية واألحوال الشخصّية، كالزواج والمواريث والوصاية؛ ويوّثق أيًضا العقود بصفته كاتب عدل، ويحتفظ بسجّالت الملكّية العقارّية. والقاضي الحالي، من أصل قسطنطينّي،

رجل مهّذب جًدا ومثّقف؛ زرته، وحني علم أني كنت في مصر معنّيا بتنظيم المحاكم المختلطة، أعطاين طواعّية معلومات كثيرة عن سير أعمال محكمته، وأراين إحصائّيات معّدة باللغة التركّية إلرسالها إلى الوزارة، بدت لي مضبوطة بدّقة كبيرة. ففي السنتني اللتني تولى فيهما هذا المنصب، كان قد فصل في 743 قضّية، وحّصل من الّرسوم القضائّية 51000 قرش (نحو 9180 ليرة).

أما المحكمة "البدائّية" أو المحكمة االبتدائّية فتنظر في الشؤون المدنّية العادّية والشؤون الجزائّية الخاّصة بالسّكان األصلّيني، وتتألف من رئيس وأربعة قضاة. أما الشؤون التجارّية والشؤون المختلطة اليت يكون طرفاها من السّكان األصلّيني واألجانب معًا، فُأنشئت لها في بنغازي، كما في مدن أخرى من اإلمبراطورّية العثمانّية، محكمة تجارّية مختلطة، مؤّلفة من رئيس محلي وأربعة قضاة، اثنان منهم مّحليان واثنان أجنبّيان. وكان هذان األخيران، وقت رحلتنا، مالطّيني، إذ لم يتيّسر إيجاد أشخاص أكفاء لهذا المنصب في الجاليات األخرى.

القنصلّيات. في الشؤون المدنّية غير المختلطة، وفي الشؤون الجزائّية، يخضع األجانب، كما في كل البالد التابعة للباب العالي، لقضاء قنصلّياتهم. ومن بينها ال يرأس قنصلّية فرنسا وإنجلترا سوى موّظفني رسمّيني فعلّيني؛ أما إيطاليا والنمسا فلها وكالء قنصلّيون، وهم أشخاص من جنسّيتهما، مستقّرون منذ زمن في البالد. ووكيل قنصل فرنسا يمّثل أيًضا اليونان، والوكيل القنصلي اإليطالي يمّثل إسبانيا.

المالّية. ُيقال إن اإليرادات اليت تجنيها الحكومة العثمانّية من برقة كبيرة، وتكفي إلدارة جّيدة، بل تعطي فائًضا، لوال ما يحدث فيها أيًضا من هدر، شبه معتاد في الشرق. والجمارك والمملحات في بنغازي تدّر عائدات ضخمة، وملتزمة لشركات يونانّية.

وتتألف الّضرائب أساًسا من رسوم االستيراد والتصدير واالستهالك، وضريبة على المباني، وأخرى على المنتجات ورؤوس الماشية، اليت يدفعها البدو. وأيا كانت تسمية هذه األخيرة "عشوًرا"، فهي في الواقع ليست ضرائب نسبّية بل ضرائب توزيع، أي أن اآلستانة تفرض المبلغ اإلجمالي المطلوب تحصيله في الوالية، ثم يوّزعه شيوخ المدن والقبائل، وفق ما ُيفترض من ثروة المكّلفني ومعايير أخرى أكثر أو أقّل موثوقّية.

وحني يتعّلق األمر بتحصيل الضرائب من قبائل البدو في األرياف، ُيبدأ بإرسال مندوب، غالًبا عريف من الزبطّية، يتوّجه إلى الشيخ ويحاول أن يحّصل بالحسنى ما هو مستحّق من القبيلة بأكملها. فإن لم ينجح، ُيرَسل إلى الموقع فصيل جنود يحجزون الماشية والمؤن، ويلجؤون غالًبا إلى وسائل قسر أخرى يجيدها األتراك. فإن لم ُيتَوّصل بذلك أيًضا لتحصيل المبلغ المطلوب، تنتظر السلطات أن يأتي أحد وجهاء القبيلة إلى المدينة لشراء أو قضاء شؤون، فتقبض عليه وتضعه في السجن بل باألغالل، مّحملة إّياه مسؤولّية ما تدين به قبيلته، حّتى يقّرر أقاربه أو أصدقاؤه، فداًء له، دفع المطلوب. وأحياًنا تعارض قبيلة بأكملها دفع الّضرائب، فُيَحّرك عندئذ جيش صغير، ال يعود نادًرا خالي الوفاض.

القّوة العسكرّية. وقت مرورنا، كانت القّوة المسّلحة في والية بنغازي تتألف من نحو ألف جندي، بينهم نحو مئة من الفرسان. من هذه القّوة كان يرابط في مركز الوالية خمسمئة رجل؛ وخمسون في درنة؛ والباقون في غيغاب والمرج أو منتشرين في األرياف لتحصيل الّضرائب. والجنود والّضباط جميعهم أتراك، معظمهم من األناضول، ورغم أزّيائهم الممّزقة أو المرّقعة غالًبا، يحملون تلك الهيئة العسكرّية الصارمة اليت تمّيز دائًما الجيش العثمانّي.

وفي فترة سابقة، بقوا شهوًرا عديدة دون راتب، فنشأ في بنغازي تمّرد، ُهّدئ سريًعا بدفع راتب شهرين. وفي كل األحوال وجدناهم دائًما منّضبطين، طّيبي المزاج، وحكمنا من مظهرهم أن الطعام كان ُيوّزع عليهم أيًضا بكّمّية كافية؛ الجزء األقّل بهاء من زّيهم هو األحذّية، غالًبا ما تكون بالغة التآكل أو مستبَدلة بقطعة جلد مربوطة بالقدم بسير أو خيط؛ في المقابل ُتحَفظ في حالة ممتازة بنادق هنري-مارتيين الممتازة، اليت يحترمها العرب كثيًرا، إذ يعرفون آثارها. وروى لنا الجنود أنه في اشتباك وقع قبل بضع سنوات قرب قورينا، ُقتل ثالثون بدوًيا وُجرح سبعون، بينما لم يسقط من األتراك سوى واحد.

وإلى جانب الجيش النظامي، يوجد في الوالية نحو ثالثمئة من الزبطّية أو حرس الشرطة، مهّمتهم حفظ النظام في المدن وتحصيل الّضرائب في األرياف. وهم في معظمهم عرب، ورغم أنهم أيًضا ال يّتصفون باالقتصاد في استخدام العصا والكرباج، يبدو أن السّكان يثقون بهم أكثر من الجنود؛ لكّن الّزبطّية المحّليني، أقل َصربا من األتراك، يتركون الخدمة سريًعا حني ال ُيدَفع لهم.

التعليم. التعليم منتشر عموًما بشكل ضئيل، وقليلون بني البدو من يعرفون القراءة والكتابة. وفي المدن توجد مدارس دينّية عند المساجد وعند زوايا السنوسّيني، حيث يقتصر التعليم على اللغة العربّية وحفظ القرآن عن ظهر قلب. وقد ُأسست في بنغازي منذ سبع سنوات مدرسة ثانوّية نوعا ما، زرتها؛ وأستاذان قدما من الآستانة أكرماين بالضيافة، وبدا سرورهما أن غريًبا يقّدر معارف تالميذهما، الذين يبدو أنهما يهتّمان بهم كثيًرا، معّلَمني إّياهم التركّية والعربّية والحساب وبعض مبادئ الجغرافيا والّرسم. وكان الطالب، فتيان نجباء أذكياء، ثالثني عدًدا، معظمهم أبناء موّظفني أتراك، ومن بينهم أبناء الباشا نفسه، وأبناء تّجار قندّيني. أما الّسكان األصلّيون فيتردد كثير منهم في إرسال أبنائهم إلى هذه المدرسة، خشية أن ُيؤَخذوا الحًقا للخدمة العسكرّية.

وليس لألجانب حالًيا مدارس عاّمة، بعد أن ُأغلقت المدرسة اليت كان رهبان األرض المقّدسة يديرونها في ديرهم، بسبب قّلة اإلقبال كما ُقيل لي. في المقابل، تواصل راهبات "الّراعي الصالح" الفرنسّيات إدارة مدرسة بنات، ُفتحت منذ بضع سنوات، ويرتادها أبناء أوروبّيني وسّكان أصلّيني، ُيَعّلمن فيها اإليطالية واألشغال النسوّية. كذلك لدى اإلسرائيلّيني مدرسة ملحقة بالكنيس. لكن من يستحّق حًقا التقدير في مجال التعليم في بنغازي هو ابن الوكيل القنصلي اإليطالي، الّسيد جيوفاني روسوني، الذي، بمثابرة وحسن نّية كبيرين، يجتهد في نشر الحضارة والتقّدم في بلد كان التعليم فيه حّتى اآلن مهمًال تماًما وُينَظر إليه بمنتهى االلمباالة. وكان قد فتح مدرسة صغيرة، ُيعّلم فيها بعض الّشبان اإليطالّية والعربّية والجغرافيا والحساب؛ ويستحق هذا الرجل الذكّي المتواضع في آن حًقا التقدير، إذ استطاع وحده، وبمعونة بضعة كتب استقدمها من أوروبا، أن يكتسب ثقافة غير معتادة، ويؤَمل أن يجد من إيطاليا ما ُيشّجعه على مواصلة طريق سلكها بتفاٍن نادر.

الّشعائر الدينّية. توجد في بنغازي بعثة تبشيرّية كاثولكّية، مؤّلفة من ثالثة رهبان من رهبانّية "اإلخوة الّصغار المراقبني"، إّيطالّيي الجنسّية، لكن المؤّسسة، كسائر مؤّسسات األرض المقّدسة، خاضعة لحماية فرنسا. وفيها أيًضا مصّلى يونانّي وكنيس يهودي كبير. أما في درنة وسائر أنحاء برقة فال يقيم أي كاهن نصراني، وبالتالي يبقى النصارى القالئل المقيمون هناك محرومني من أي عزاء دييّن.

الزراعة. زراعة األرض المهملة حاليًا يمكن أن تحتمل تطوّرا كبيرًا جدًا، ومعظم الأراضي، غير المزروعة اآلن على اإلطالق، يمكن أن تعطي محاصيل وافرة. يزرع العرب من القمح والشعير ما يكفي حاجتهم وحاجة خيولهم وحميرهم؛ ثم ال يعودون يهتّمون بها حّتى موسم الحصاد. والأراضي اليت يشغلها البدو ُتعَتَبر ملكًا للحكومة، اليت تمنحها للقبائل مقابل عشر المحصول؛ فمن أراد شراءها وجب أن يتوّجه إلى الحكومة.

وفي جوار بنغازي ودرنة توجد بالمقابل ملكّيات خاّصة، ُتزَرع بعناية بساتني وحدائق مثمرة، تعطي محصوًال جّيدًا. لكن في تكوين الملكّية العقارّية يسود قدر كبير من عدم اليقني، وينبغي توّخي الحذر في شراء الأراضي حّتى ال ُيتَعّرض لخطر أن ينتزعها عند الحصاد شخص ثالث يّدعي ملكّيتها.

التجارة. التجارة أساًسا في أيدي اإلسرائيلّيني، وهي نشطة نسبًّيا؛ ولكانت أكثر نشاًطا لوال نقص المواصالت المنّتظمة مع مناطق الساحل األفريقي األخرى ومع أوروبا. وأهّم بند فيها هو تجارة الماشية، اليت ُتصّدر إلى مالطة على متن الباخرات وإلى مصر بًرا. تليها تجارة الّصوف، وفي السنوات الجّيدة يجري أيًضا تصدير كبير للقمح والشعير. ومن البنود الّرابحة جًدا، إذ ُيقّدر أنها تدّر سبعمئة ألف ليرة سنوًيا، اإلسفنج، الذي ُيجَمع في أشهر الّصيف في خليج السرت الكربى، على أيدي صّيادين يونانّيني، بواسطة غّواصني مزّودين بأحدث المعّدات، اليت تسمح لهم بالعمل طوًيال تحت الماء. وهذه الصناعة، اليت يتطّلب مزاولتها إذًنا من الباشا، يمكن أن تكون رابحة أيًضا لبحّارة جنوب إيطاليا، البارعني جًدا في صيد المرجان، وينبغي أن ُتجِّرب فيها المحاولة.

وبنغازي هي ميناء المتوسط الذي منه يكون الوصول األسهل واألقصر إلى واداي؛ ويمكن قطع تلك الرحلة في أكثر قليًال من شهرين، لو ال ما يؤّخرها من توّقفات طويلة في الواحات وما يرافقها من عوائق ال مفّر منها. وُتقام التجارة مع تلك المنطقة بواسطة قافلتني أو ثالث قوافل كبيرة من الجمال، تذهب وتعود كل عام، حاملة إلى واداي منتجات الصناعة األوروبّية، ومصّدرة منها ريش النعام والّصمغ والعاج، ولألسف أيًضا الّرقيق، الذي ال يزال ُيتَاجر فيه دون كثير تحّفظ، رغم المحاظير اليت أصدرها الباب العالي، عمًال بمعاهدات ُأبرمت مع بعض الّدول األوروبّية.

الصناعة. ال تزال صناعة البالد في طور الطفولة؛ وتقتصر تقريًبا حصًرا على نسج الربانس أو معاطف الّصوف، اليت ُتصَنع في بنغازي ودرنة، لكن ُيستوَرد منها كّمية أكرب من تونس، وعلى صناعة الّسروج وأكياس الذخيرة وغيرها من مصنوعات الجلد المشغولة، اليت يظهر في زخرفتها، المطّرزة أحياًنا بالحرير، ذوق فّني معّني. وُتستَورد البنادق الّصوانّية من تونس واآلستانة، وُتدَفع بثمن غاٍل إن كانت مزّينة بترصيع من العاج أو الفّضة.

العملة. في الحسابات الصغيرة تشيع عادة القرش (بيّسة) التركّي، عملة متآكلة تعادل 18 سنتيًما إيطالًيا، وتنقسم إلى أربعني بارة نحاسّية. أما العمالت الأخرى فتخضع لتقّلبات مستمّرة، تسّبب خسائر ملموسة للمسافرين قّليلي الخربة، ومصدر أرباح لصّيارف العمالت. وقيمتها تختلف أيًضا من مكان آلخر، وفي التعامالت مع الحكومة ال ُتقَبل إال بسعر أدىن بكثير من سعر السوق. وأكثر العمالت رواًجا في برقة، كما في وسط أفريقيا، إلى جانب القرش، هو تالر ماريا تريزا، الذي يسّميه العرب عاّمة "أبو طير" أو "أبا الطائر"، نسبة إلى صورة النسر المطبوعة عليه. ويستحسن التزّود به من إيطاليا أو مالطة، إذ يصعب غالًبا إيجاده في البالد، ويجب دفع عالوة معتربة عليه.

األوزان والمقاييس. األوزان المستخدمة عموًما هي القنطار من خمسني أوقّية (61 كيلوغراًما) للّصوف، والقنطار من أربعني أوقّية (48.80 كيلوغراًما) للمواد الغذائّية والريش واألنياب وغيرها. أما المقاييس فُتستخَدم: الصاع (1.15 مكتولرت) للحبوب، والذراع (0.50 مرت) للمنسوجات واألخشاب وغيرها.

وتخضع السلع المستوردة لرسم جمركي يرتاوح بني اثنني وعشرة بالمئة بحسب نوع البضاعة. أما تصدير الحبوب والصوف فُيفَرض عليه واحد بالمئة؛ وتصدير الماشية الكبيرة خمسة قروش، والّصغيرة قرشان لكّل رأس.

المواصالت. إن السبب الرئييس في بقاء برقة، هذا البلد الخصيب البهيج، طّي النسيان لقرون عديدة، وشبه منقطع عن عالقاته بسائر العالم، هو نقص المواصالت. فحّتى سنة 1881 كانت هذه ال تقوم إال بواسطة الباخرة "أليغرا"، التابعة لشركة في مالطة، اليت كانت تقوم برحلتها بني تلك الجزيرة وبنغازي بفترات غير منتظمة، أي حني تجد حمولة كافية. ومن حني آلخر كانت تصل إلى بنغازي أيًضا باخرة عثمانّية، قادمة من اآلستانة ومّتجهة إلى طرابلس، وكانت المراسالت ُتحَمل أحياًنا أيًضا على سفن شراعّية، قادمة من مالطة وطرابلس وكريت. لكن هذه الوسائل المختلفة كانت معيبة إلى حد أنه في بعض الشتاءات ُبقي في بنغازي حّتى خمسة أشهر دون أخبار من أوروبا؛ ويسهل تخّيل كم كانت هذه العزلة مؤلمة للّسكان ومضّرة بمصالح البالد.

وفي ربيع 1881 كانت شركة روباتينو قد بدأت خدمة بواخر، تنطلق كّل خمسة عشر يوًما من مالطة، وتمّر بطرابلس وحمص ومصراتة، فتصل إلى بنغازي وتغادرها بعد توّقف يومي أو ثالثة، متجهة مباشرة إلى مالطة. وفي الخريف الماضي ُعّلق هذا الخط، بسبب المخاطر اليت يمّثلها في الشتاء الّرسّو في بنغازي بفعل ريح الشمال الغربي السائدة فيها، وُعدنا إلى الحال السابقة؛ ثم ُاستؤنفت الخدمة في ربيع هذا العام، وربما أمكن، مع أمل معقول بالّربح، أن تمّتد أيًضا إلى مرافئ كريت ودرنة.

وبني هذه المدينة األخيرة وبنغازي ال توجد حّتى اآلن وسيلة مواصالت أخرى سوى السفينة الشراعّية العربّية "مربوكة"، اليت تقوم برحلتها دون موعد ثابت. أما خدمة الربيد فيقوم بها ساعٍ على جمل مّرتني في الشهر.

ويوجد أيًضا سّكان أصلّيون كثيرون يقومون عند الحاجة بدور الّساعي، متكّفلني بحمل رسائل ورسائل، يقطعون سيًرا على األقدام وبسرعة كبيرة مسافات طويلة مقابل أجر زهيد، وهم عادة منتبهون موثوقون، كما اختربنا نحن أنفسنا.

ومنذ سنوات قليلة كان لبنغازي خط تلغراف مع طرابلس ومالطة؛ ثم ُهجر، لكّن الكابل ال يزال موجوًدا، وكان يجري مؤّخًرا الحديث عن إعادة تشغيله.

الخاتمة. الّدراسات اليت أنجزتها جمعية االستكشاف التجاري بميالنو في أفريقيا تبّني بوضوح أن برقة، اليت كانت في القدم مزدهرة وحضارّية إلى هذا الحد، يمكن أن تنهض من جديد إلى حياة جديدة، لو ُأعطي دفع فّعال للزراعة والصناعات والتجارة. ولتنمية موارد الثروة هذه تّتجه جهود تلك الجمعّية اليت ال تعرف الكلل، اليت تولي اآلن اهتماًما رئيسًيا لبرقة، وبينما تبحث عن سبيل استزراع أراضيها على نطاق أوسع، بدأت عملّيات تجارّية تجريبّية في محّطتيها ببنغازي ودرنة، بهدف تشجيع التجار اإليطالّيني على تأسيس محال تجارّية فيها لحسابهم الخاّص.

إن قرب تلك المنطقة من إيطاليا، وحسن مناخها القريب الشبه من مناخنا، وبعض التعاطف نحو اإليطالّيني الذي ُيالحظ لدى السّكان، كل ذلك يدعو لالعتقاد بأن مواصلة هذه العالقات وتنميتها، مع احترام الحكومة والعادات والّدين بطبيعة الحال، يمكن أن يؤول بفائدة متبادلة إليطاليا وإلى برقة.

الرسوم واللوحات والخرائط الأصلية للكتاب (نسخة مصححة وموسّعة)

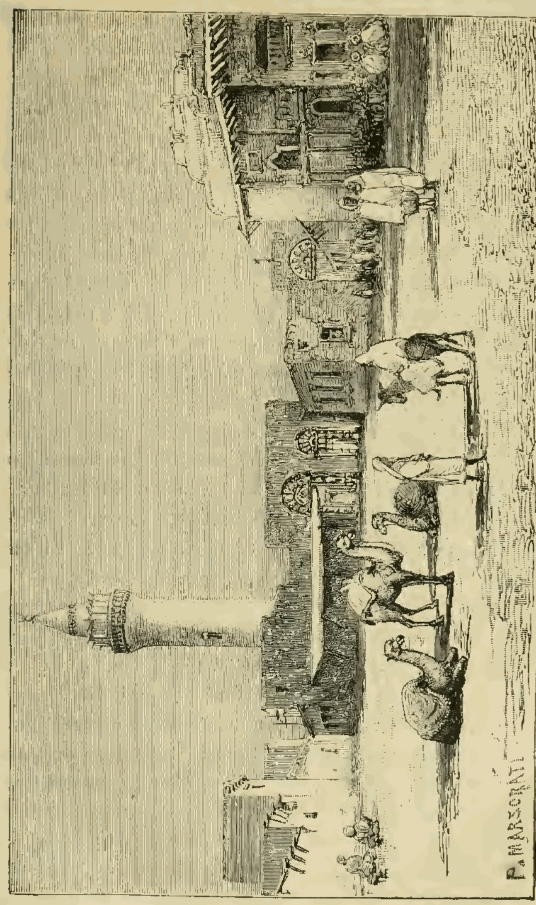
فيما يلي جميع الرسوم واللوحات والخرائط الأصلية التي عُثر عليها في الكتاب الإيطالي (طبعة ميلانو 1886)،



22 *Malta.*

La mattina del sabato grasso siamo svegliati per tempo da una musica vivace di pifferi, trombe e tamburi, che non manca di originalità e di ritmo marziale. Ci affrettiamo alla finestra e vediamo, tra la folla che a quell'ora già riempie la strada, un gruppo di giovanotti, alcuni vestiti alla spagnuola con giubbe di velluto, altri camuffati alla turca colle teste avviluppate da cuffie di seta di Damasco, che saltano e volteggiano con grande destrezza in passo cadenzato, al suono della musica, e armeggiano gli uni contro gli altri furiosamente, con bastoni e lunghe spade di legno. È il ballo guerriero la *parata,* costume rimasto dal tempo in cui Malta apparteneva ai Cavalieri, che rappresentavano così la guerra coi Turchi. Ma allora la danza veniva eseguita dai Cavalieri stessi, chiusi in armature cristiane e saracene, e armati delle gloriose spade, che avevano bevuto il sangue delle battaglie. Ora ballano i popolani aggirandosi per le vie e le piazze, e sostando innanzi alle case più cospicue ed agli alberghi; e alla fine di ogni danza una

رسم توضيحي لاحتفال الكرنفال في مالطة (فصل المغادرة من إيطاليا والوصول إلى بنغازي)



Piazza di Bengasi.

L'agente consolare signor Rossoni, prevenuto dell'arrivo dei

رسم ساحة بنغازي ولقاء الوكيل القنصلي السيد روسوني بالناجين من الغرق

coperte, il suo portamento e qualunque sua mossa sono sempre eleganti. Tiene immancabilmente due pistole alla cintura e in viaggio porta ad armacollo un bel fucile di Tunisi, a pietra s'intende, incrostato d'argento e munito di bajonetta. Sa leggere



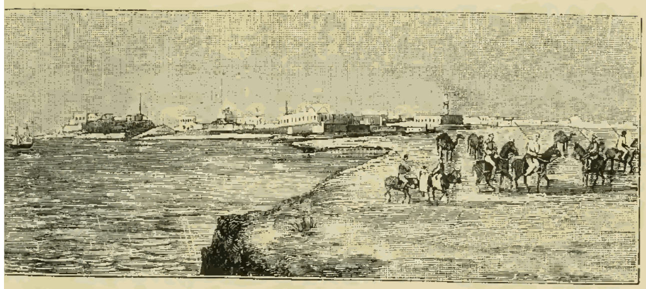
l'arabo, ma non lo scrive; ha ingegno svegliato ed avido di sapere; conosce benissimo tutte le vie, i monti e le valli della Cirenaica, ed ha molta cognizione delle piante che vi crescono e di tutto ciò che si riferisce alla pastorizia, possedendo egli stesso numerose greggie. Sidi Muftah appartiene alla famiglia degli Aduli, originaria della Tripolitania, ma imparentata colle prime famiglie della tribù dei Brassa, che abita l'altipiano di Barka, e suo padre Mohammed el Aduli fu guida a Hamilton, a Smith e Porcher ed a Rohlfs. Egli ha ereditato dal genitore la fama d'uomo valoroso non meno che avveduto, e nelle quistioni gravi il suo parere è ascoltato con deferenza. Dicesi che per l'addietro Muftah non fosse troppo rigido osservatore del Corano, in quanto comanda l'astensione dal vino e dai liquori infernali dei miscredenti; ma ora egli non beve che acqua e probabilmente appartiene alla confratenita degli Snussi: certo si è che ha fatto il pellegrinaggio a Giarabub e ha visitato Sidi Mahdi, pel quale ha grande venerazione, parlando però di lui il meno possibile. Sobrio, calmo, in apparenza quasi indifferente per ciò che gli sta dintorno, d'ordinario parco di parole, diventa gajo e comunicativo

رسم توضيحي من فصل الإقامة في بنغازي وتشكيل القافلة

IV.

Partenza per l'interno. — Lete. — Haua Segal. — Bu Mariam. — Negal. — Bu Sema.

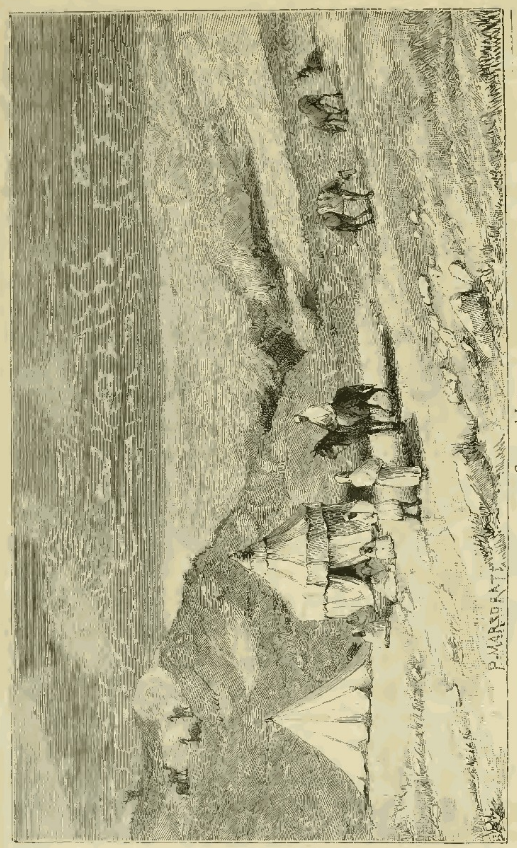
Al mezzodì del 20 marzo, cammelli, cavalli e somari compaiono alla porta della stazione e la quieta viuzza si riempie di trambusto e di grida. S'impiega un tempo lunghissimo a legare il carico e assettarlo sulla groppa dei cammelli, che protestano coi loro muggiti e talora si alzano e cercano fuggire; anche i cammellieri mettono a dura prova la nostra pazienza, colla loro lentezza e le loro esigenze. Finalmente alle quattro tutto è pronto e uno squillo di tromba dà il segnale di metterci in marcia.



Sboccati dalle anguste vie di Bengasi, gremite di Arabi e

لوحة/رأسية زخرفية لبداية فصل "الرحيل إلى الداخل"

vita? Gli antichi scrittori annoverano parecchi Lete. Uno scor-

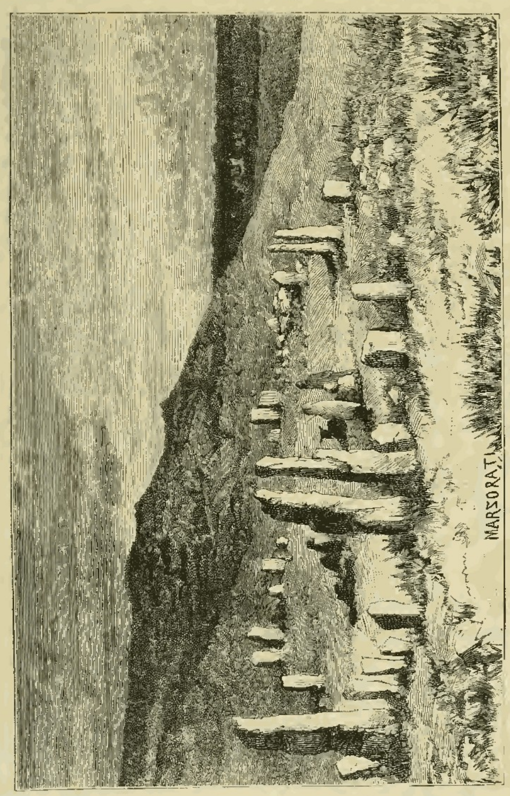


Campo al Lete.

reva nell'antro Trofonio in Beozia e quelli che, consultato l'oracolo, ne bevevano, scacciavano dallo spirito ogni idea profana.

رسم توضيحي لكهف ليّيت (نهر النسيان عند القدماء)

drati, ora circolari, ne trovammo ancora un gran numero, particolarmente a Slonta, Zuei e Safsaf presso Cirene. Quasi sempre



Haua Segal.

sono vicini ad una cisterna; molte volte riparano l'ingresso delle grotte le quali, come rammentano gli scrittori greci, erano abitazioni de' popoli barbari, da loro chiamati Trogloditi. Ciò in-

رسم للأسيجة الحجرية القديمة في هاوة سغاي

merose e ben nutrite mandre. Il mattino successivo si varca una serie di colline e di vallette monotone e scoperte; comincia a soffiare il *ghibli*, il vento caldo del deserto e fa uscire dai nascondigli i rettili e gli insetti, dei quali presto è riempita la boccia di latta, appesa all'arcione del mio cavallo. La cattura di due grosse serpi: *cœlopeltis insignitus*, come quella di Negal, mostra il coraggio e la destrezza di Ahmeda e la paura di Ibrahim, che non osa toccarle, ma ne porta una, infilzata sulla bajonetta. Una distribuzione di tabacco corona le loro imprese ed eccita l'emulazione degli altri.

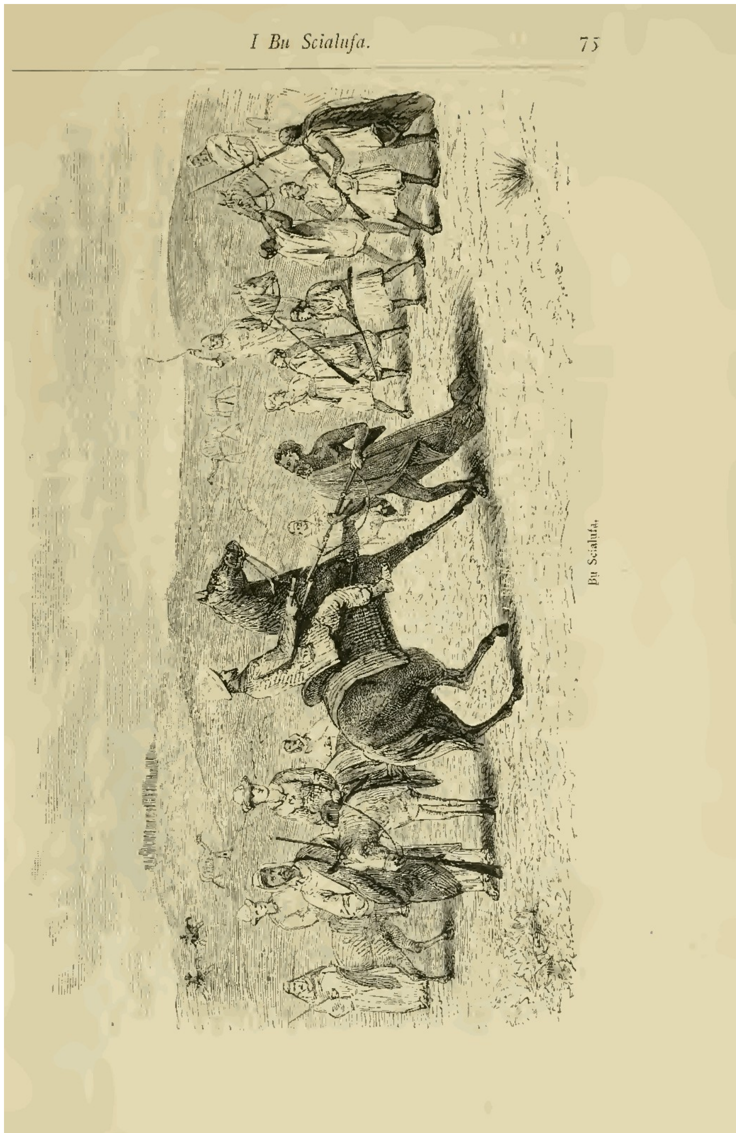


Megel, presso Uadi Ahmar.

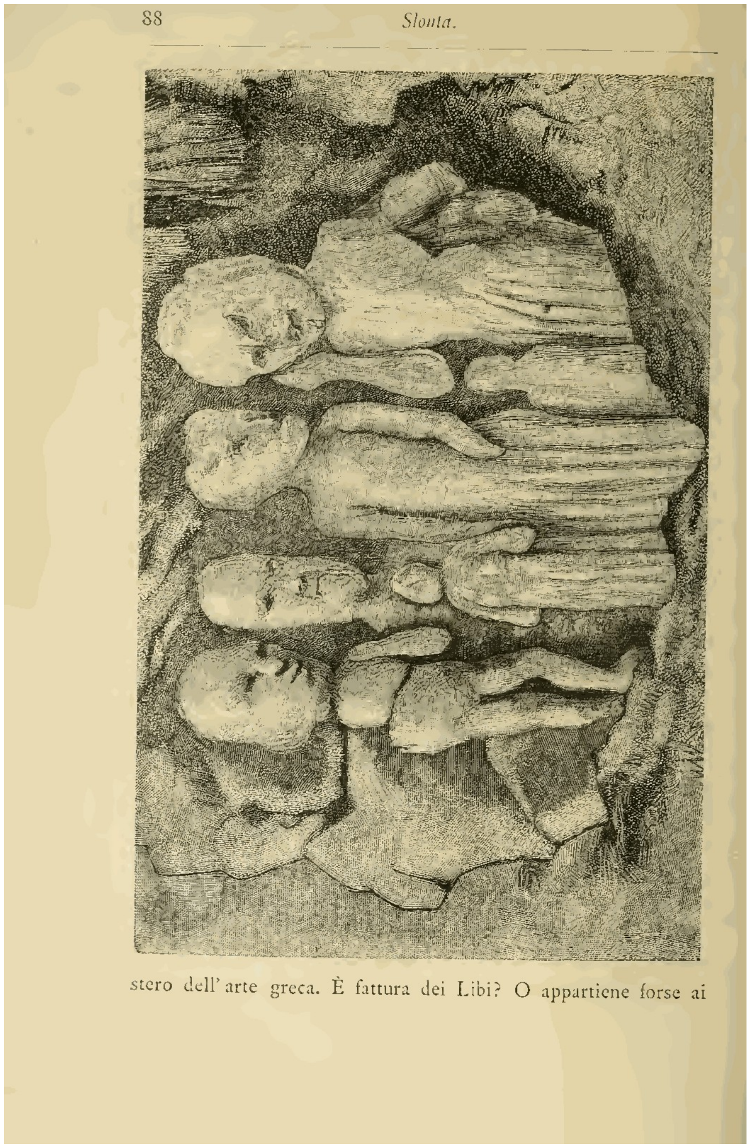
Nel pomeriggio giungiamo a Maraua, vasto bacino di forma ovale, lungo ben quattro chilometri e largo due, chiuso fra erbose pendici che rammentano i pascoli delle nostre Alpi.

Qui comincia la regione del *drias*, la *Thapsia garganica*, nella quale molti viaggiatori credono riconoscere il misterioso *Sylphium cyrenaicum*, antico vanto del paese. La pianticella giunge all'altezza di un metro ed appartiene al genere delle ombrellifere, come si vede a colpo d'occhio dai fiori, che incominciano a svilupparsi. Siamo ansiosi di coglierne e riempirne gli erbari, ma gli arabi

رسم توضيحي من فصل ماراوا



رسم توضيحي لحادثة هجوم قبيلة البو شيالوفة على القافلة (الفصل الخامس)



88 *Slonta.*

stero dell' arte greca. È fattura dei Libi? O appartiene forse ai

رسم توضيحي لآثار سلونطة والنحت الغائر المكتشف فيها (الفصل الخامس)

tende, le quali, per rispetto agli usi orientali, si piantano a un centinaio di metri da quella ove abitano le donne dell'Aduli.



Tende di Muftah a Lemscie.

Appena siamo in ordine, egli, da compito cavalière, invita mia moglie a far visita alla sua. Ed ecco quanto essa ha raccontato.

Sulla soglia della tenda è ricevuta dalla moglie di Muftah, bella giovane, dai grandi occhi neri, dal mento tatuato di blù, di modi affettuosi e felice per l'arrivo del marito. Nell'interno non altro arredo, che poche stuoie, alcuni sacchi, che racchiudono le vesti e sono pure usati per cuscini, qualche pentola, ed un arnese di legno che dicono serva per formare una specie di palanchino per le beduine, quando viaggiano sui cammelli.

Seggono nella tenda diverse donne, la madre, la sorella e la cognata della sposa, tutte allegre, simpatiche e curiose; vestono panni di cotone azzurro, come le altre beduine, ma appariscono più di queste pulite ed hanno la testa coperta da fazzoletto blù a righini misti di rosso, che contorna artisticamente il viso. Una negra mette al fuoco una grossa pentola e prepara per gli ospiti l'*aescia,* pasticcio di pane con burro fresco appena sciolto; alcune

رسم توضيحي لمشهد الخيام في لمسية (زيارة زوجة سيدي مفتاح)

doria e la luna falcata brilla nel cielo purissimo, quasi voglia associarsi alla comune allegria.

Ma tutto passa, e al giorno di festa ne succede uno di noia e di fatica. Il sole del 2 aprile spunta fra un velo di nebbia rossiccia, che pronostica il ghibli; Muftah è triste, perchè deve lasciare i figli, la moglie e . . . la schiava; Ahmeda accusa dolori, perchè ha mangiato dell'*aescia* a crepapelle; i cammellieri lasciano a malavoglia il paese della cuccagna.

Si parte tardi e si discende la valletta di Lemscie fino all'incontro della via principale, fiancheggiata da un largo torrente asciutto che, ci si dice, mette nel Uadi Derna. Due Beduini della tribù Abidat, montati sopra un solo cammello, ci accompagnano per un tratto, poi ci lasciano per dirigersi alle loro tende.



Dopo ripetute salite e discese per colli ondulati, ove crescono drias e lentischi, si cala in una immensa pianura, formata di un'argilla giallastra ove non cresce che l'artemisia.

Avanti a noi, alla distanza di oltre 20 chilometri, si stende una lunghissima catena di monti bruni azzurrognoli, a quanto sembra nudi; in essa un incavo, che si direbbe fatto con un'accetta, segna l'andamento del gran Uadi, diretto a Derna. Esso accenna al N.-E., ma il vecchio Mena, il quale ora conduce la carovana, ci fa piegare a mezzogiorno, per evitare i burroni e le rupi, che hanno reso tanto difficile la discesa a Camperio.

رسم توضيحي لليلة الاحتفال في لمسية عند اكتمال القمر



رسم توضيحي لمدينة درنة كما تُرى من أعلى العقبة (الفصل السادس)

nuovi amici, facemmo belle passeggiate al nuovo faro, costrutto dalla compagnia francese, al diruto castello saraceno, dal quale si domina la città e si gode un' incantevole vista, al Uadi Derna, fiorito di oleandri e cinto di palme crescenti fra le rupi, come



Castello di Derna.

nei boschi dei tropici, e all' isola di Mestemelka, che è uno scoglio distante dalla terra circa due tiri di fucile, ove si vedono due piccoli bacini, scavati nella roccia evidentemente ad uso bagno, e che comunicano col mare esterno mediante condotti.

Il porto di Derna è formato da un bellissimo seno, che potrebbe con pochi lavori essere reso sicuro. Al tempo del nostro passaggio non vi era neppure un bastimento, ma la rada è frequentata da velieri di Candia, che mantengono con quell' isola un commercio di scambio abbastanza attivo.

Una escursione più lunga fu intrapresa alla Kenissìe, parete di rupi che si eleva sopra il mare, alla distanza di un' ora e mezza all' E. di Derna, e nella quale sono scavate od adattate dalla mano dell' uomo diverse camere, cui si accede per un dif-

رسم توضيحي لمناظر درنة (المنارة الجديدة والقلعة السرقسطية)

lasciar partire a quella volta, senza il permesso del Pascià di Bengasi, il quale probabilmente già aveva dato istruzioni dirette in contrario. Narrò pure una storia, non so se vera, di un colonnello dell'esercito turco, ucciso da quelle tribù poche settimane prima.

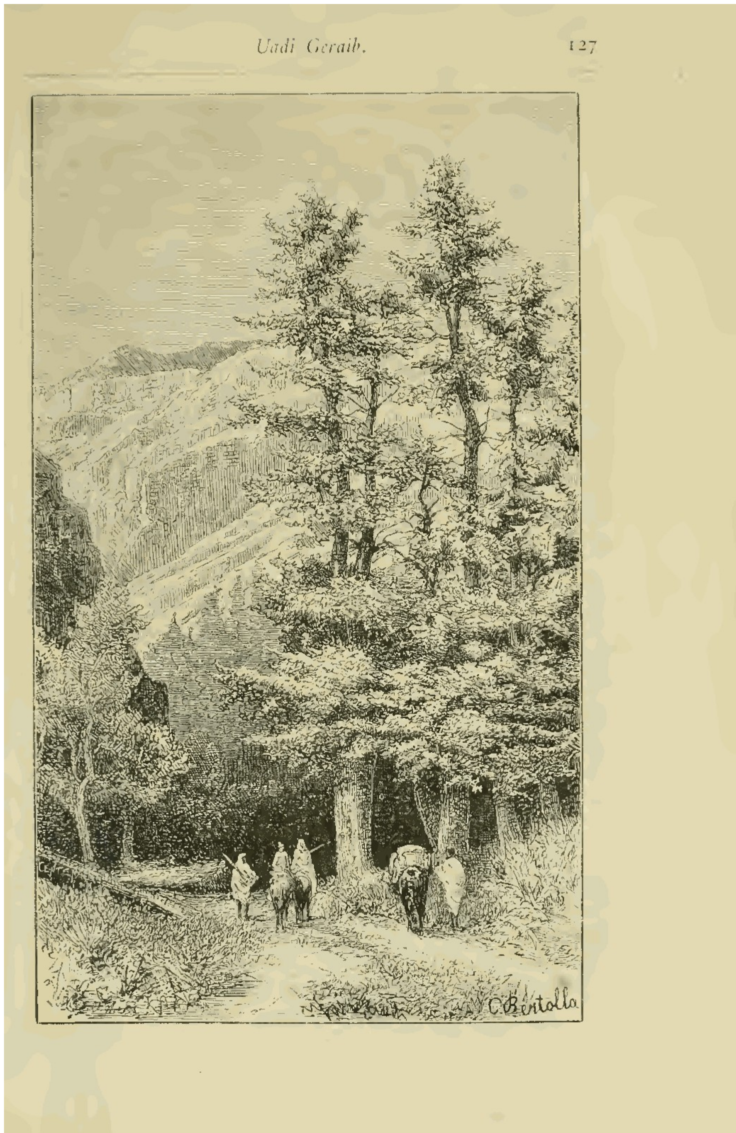
Non ci fu in compenso difficile di ritornare per una via diversa da quella dell'andata, costeggiando dapprima il mare, ad occidente di Derna, ed ascendendo quindi l'altipiano per la scoscesa via dell'Aguba.

Riuscii perfino per tale via, con una breve deviazione, a visitare, pur troppo alla sfuggita, la fertilissima valle di Ain Mara, della quale Camperio ci aveva parlato, e che sapevamo custodita con gelosa cura dagli Snussi che vi hanno una Zauia (convento)



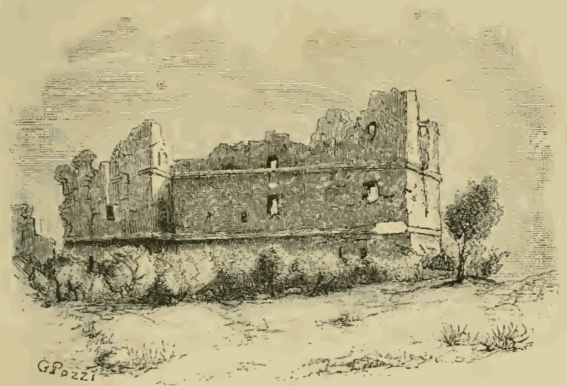
e cercano impedirne l'accesso ai forestieri. Questa gita, compiuta di intesa colle due guardie, ma senza il consenso della guida, e così rapidamente da non destare sospetto, non ebbe sinistre conseguenze, ma ci fu un'altra prova degli ostacoli che la diffidenza

رسم توضيحي لوادي عين مارة



رسم توضيحي لوادي جريب الوعر بأشجار السرو (الفصل الثامن)

alle possibili difese; si visitano e si ricaricano le armi, si dispongono guardie, si prendono concerti e ci gettiamo sulle brande vestiti. Di tempo in tempo io esco dalla tenda a dare un' occhiata all' ingiro; una splendida luna rischiara il castello, le tende



Gasr Benig' dem.

e le lontane colline, ma nulla si muove, tranne i cavalli che pascolano per lo spianato ed il gufo che svolazza sopra le rovine. Anche questa volta i beduini non tramano attacchi notturni.

Mustafà teme invece per l'alba e perciò, malgrado la riluttanza dei cammellieri, che non vogliono mettersi in viaggio di notte, facciamo togliere le tende prima di giorno, e, il levar del sole ci trova in marcia. Cogliamo presso il castello alcune grandi piante di drias, che più non troveremo oltre questa regione, e, scesi in una larga valle, lasciamo il territorio degli Hassa per entrare in quello dei Braghta. Rasentiamo numerose tende, le quali, disposte in ordine simmetrico, sembrano veri villaggi, con vie e piazze sulle quali sono raccolti gli armenti; l'ora è così mattutina, che passiamo quasi inosservati. Poi si ascende per

رسم توضيحي لليلة الحراسة عند قصر بنيقدم



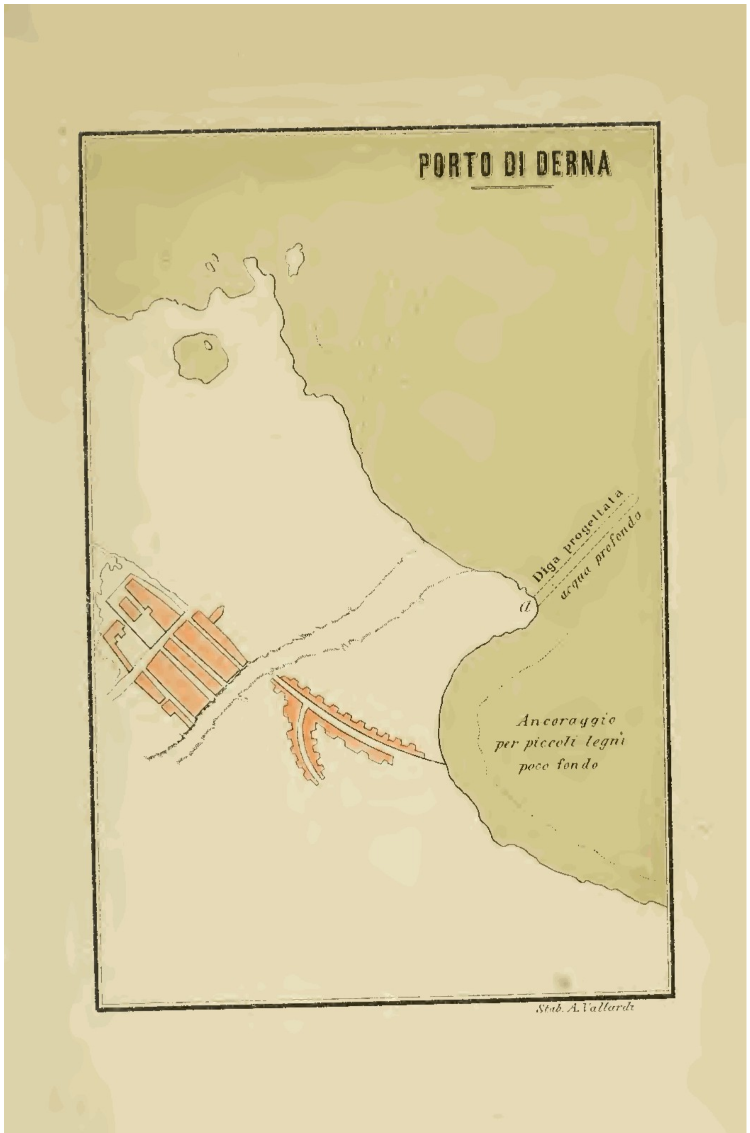
الخريطة الجغرافية العامة لإقليم برقة (لوحة مطوية بمقياس 1:1,200,000 - الورقة الأولى)



الخريطة الجغرافية العامة لإقليم برقة (تتمة الورقة، مع خريطة إجمالية أصغر، طبع مطبعة أ. فالاردي بميلانو)



مخطط ميناء بنغازي (طبع مطبعة أ. فالاردي بميلانو)



مخطط ميناء درنة (طبع مطبعة أ. فالاردي بميلانو)



الغلاف الخلفي للنسخة الأصلية

الفهارس

فهرس الأعلام (الأشخاص)

فهرس القبائل والجماعات

إخوان السنوسية — أتباع الطريقة السنوسية.

أهل ثريا (اليونان القدامى) — مؤسسو مستعمرة قورينا في الأصل.

أهل كريت (قنديون) — جالية تجارية في بنغازي ودرنة.

البراعصة — قبيلة تسكن هضبة برقة الوسطى، تنتمي إليها أسرة الدليل مفتاح.

البو شيالوفة — بطن من قبيلة العبيد، هاجم القافلة قرب بينيه.

الحسا — قبيلة تسكن جوار قورينا، معروفة بالتشدد تجاه الغرباء.

العبيد — قبيلة كبيرة شرق بنغازي.

العبيدات — قبيلة تسكن حتى خليج بومبة.

العدول — أسرة الدليل سيدي مفتاح، أصلها من طرابلس.

العواقير — أكبر قبائل الرحل عددًا، حول بنغازي.

القورينيون (اليونان القدامى) — سكان قورينا في العصر الكالسيكي.

الليبيون (القدامى) — السكان الأصليون قبل الفتح اليوناني، وتشمل: الجيليجامي، الأسبيت، الأوسخيسي، الكابالي، النسامون، الغرامنت، الماكي، الجندان، اللوتوفاج، الماسكيلي، الألوشي.

فهرس األماكن والمناطق

أبولونيا — انظر مرسى سوسة.

أرسينوي — انظر توكرة.

أزيريس — موقع قديم قرب خليج بومبة.

أمبيسو — محطة قرب سيدي رفاع.

إيراسا — موقع قديم قرب قورينا.

بارقة (بارنيق) القديمة — انظر المرج.

برنيق — انظر بنغازي.

بو حسن (قلعة) — حصن قديم في الطريق إلى درنة.

بو مريم — حوض ومخيم في الطريق الداخلي.

بومبة (خليج) — ميناء شرق برقة.

بيت التمر — موقع أطالل رومانية.

تكنس — منطقة بين غيغاب وقورينا.

توخرا/توكرة — مدينة يونانية قديمة (توخريا)، ميناء غرب درنة.

جالو (واحة) — واحة جنوب برقة.

جبل األخضر — الجزء الشرقي الجبلي من برقة.

جردس (جِرِدس) — حوض ومخيم غرب برقة.

جغبوب (واحة) — مقر سيدي المهدي، زعيم السنوسيين.

درنة — المدينة الرئيسية شرق برقة.

رأس اللبن — أطالل قرب درنة.

زويانة — بحيرة قرب بنغازي.

زويي — حوض ومخيم في الطريق إلى درنة.

سلونطة — موقع أثري به كهوف ونحت غائر قديم.

سيدي خليفة — موقع الغرق قرب بنغازي.

سيوة (واحة) — واحة مصرية، معبد زيوس آمون.

شعبنة — منخفضات زراعية قرب بنغازي.

صفصاف — موقع أثري بين غيغاب وقورينا.

صرية (سرية) — قلعة وموقع أثري.

طبرق — ميناء قرب الحدود المصرية.

طلميثة — مدينة يونانية قديمة.

عين شحات — انظر قورينا.

عين مارة — واد خصيب قرب درنة، فيه زاوية سنوسية.

غيغاب — قلعة تركية.

فطّية — مخيم قرب درنة.

قصر بنيقدم — حصن روماني.

قصر مستنانج — أطالل قلعة عربية.